أخبار الأمم المبادة في القرآن

تأليف

عاتق بن غيث البلادي

دار مكة
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

عاتق بن غيث البلادي

أخبار الأمم المبادة

(في القرآن)

دار مكة
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

دار مكة
للنشر والتوزيع
مكة المكرمة - ساحة إسلام
هاتف: مكتب ٥٤٤٧٤٩٤
ص.ب: ٢٩٩٢

المقدّمة

الحمد لله المنعم المنان ﴿ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾(١) وجعله على نفسه بصيرة، والصلاة والسلام - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - على إمام الهدى وسيد ولد آدم محمد بن عبد الله ، النبي القرشي العربي ، وعلى آله وصحبه ومن عمل بهديه وسار على أثره ، أما بعد : فيا أيها الإنسان ! إن الله خلقك ﴿ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾(٢) واشترط عليك الإيمان به ، والتصديق برسله ، وإلاّ فإنك ﴿ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ ﴾(٣) .

وما خَلَقَك ليتقوى بك من ضعف أو يتكثّر بك من قلّة ، أو يستأنس بك من وحشة ، فهو العزيز الذي لا يُستباح حماه ، والكبير الموجود في كل مكان وزمان ﴿ فِي السَّماءِ إلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إلَهٌ ﴾(٤) إنما خلقك لعبادته ، ولعمارة هذه الأرض ذات الخيرات الظاهرة والمعالم الجميلة، فقال جلّ وعلا : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾(٥) .

---

(١) سورة النحل : ٤ .

(٢) سورة التين : ٤ .

(٣) سورة التين : ٥ .

(٤) الزخرف : ٨٤ .

(٥) سورة الذاريات : ٥٦ .

ولكن الإنسان كفور جهول جحود عصيّ ، عصىَ أدم ربّه فتاب فتاب عليه ، وعصى ابن آدم ربّه فقتل أخاه ، فكتب الله عليه وزر كل نفس تُقتل إلى يوم القيامة ، وأرسل الله الرسل تترى ، ينادون (ألاّ آله إلا الله) فدأبت الأمم تكفر وتكذب الرسل ، وتشرك بالله ، وتعبد دونه آلهة يصنعونها بأنفسهم ، أو يتخذونها من الحجر والبشر والشجر ، ظلماً وعدواناً ، وظل عباد الله المُخْلَصين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، لا يضرهم من عاداهم ، والله مؤيدهم إلى يوم يلقونه ، فتكون تحيتهم ﴿ سلامٌ ﴾ .

ولم تشذ هذه الأمة عن سابقاتها من الأمم ، فاتخذت الأصنام وبتّكت أذان الأنعام ، وحرَّمت ما أحلَّ الله ، وأحلَّت ما حرَّم ، عدواً بغير علم ، فأرسل الله رسوله بالحق ، فأنذر وبشَّر ، فآمن من آمن وكفر من كفر، والذين آمنوا خلف منهم خلف ما رعوا حق الله ولا ساروا على نهج سلفهم الصالح ، فحق عليهم قول ربهم جل وعلا :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾(١).

وقد مرّ معك في كتابك هذا أخبار الأولين، وما جلبوا على أنفسهم من سخط الله وغضبه ، لقاء صدودهم عن الحق ، وإسرافهم على أنفسهم وتكذيب الرسل ، والإصرار على الشرك .

وليست أمتك هذه بالمستثناة من أوامر الله ، ولا المعفاة من التكاليف المفروضة لولي النعمة ، الخالق من العدم ، المتفضل

---

(١) مريم : ٥٩ .

عليك بكل ما بين يديك وما خلفك ، حتى النسمة التي تُذْرِي بين ضلوعك ما يجريها إلّا الله ، ولو توقفت ثواني للفظتَ أنفاسك ! وما أنت ولا أمتك بالذين لهم المنَّة على الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وقد سبقت النذر وتكررت ، وقد أعذر الله من أمة قصَّ عليها هلاك الأولين والآخرين ، فإذا هي حذت حذوهم وسارت على نهجهم فإنه مصيبها ما أصابهم ، ومهلكة كهلاكهم . واسمع الوعيد الشديد :

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۞ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[1].

نعم ، قرى كثيرة أهلكها الله بعد الإنذار والإعذار ، فجاء أهلُها العذاب في ساعة لا يتوقعونها ليلاً أو نهاراً، فلما حلَّ بهم قالوا : هذه معاصينا عذبنا الله بها ! ألا كان قبل العذاب الاعتراف بالذنب والتوبة إلى الله ؟ وتبديل هذه القبائح بالصالحات ؟

وانظر حولك في أعمال الأمم اليوم ، مسلمة وغير مسلمة ، ثم انظر ما يحدث من زلازل وأعاصير وغرق ، وأمراض الفناء التي ما كان يعرفها الإنسان ، أليست هذه ـ في كثير منها ـ كما حدث لعاد وثمود ، وفرعون ، والنمرود ؟! لا أظن عاقلاً يقول : ليست هذه كتلك ، الّا مع الفارق البسيط .

وسيتكرر كل هذا ما تكرر من الأمة بل من أمم الأرض ما هو سائد الآن ، فقد تحولت الدنيا كلها جاهلية جهلاء ، وفتن كقطع الليل المظلم ، فالنساء عاريات ، والقوي ياكل الضعيف ، وعباد الله

---

(١) سورة الأعراف : الآيتان : ٤ و ٥ .

الصالحون يُستهزأ بهم كما استهزأت الأمم الماضية برسلها ودعاتها ، ولم يعد يرى في كثير من الأرض الحدّ بين الباطل والحق، فالقوانين غير قوانين الله المنزلة ، والأحكام في الأرض ليست لها علاقة بالسماء ، والمنادي بالعودة إلى الله يسمى رجعياً ، والداعي إلى حكم الله يدعى متخلفاً ! والكل يريد أن يكون تقدمياً لا رجعياً ، والكل يريد أن يكون متطوراً لا متخلفاً ! والله يشهد أنها كلمات يريدها الله أيضاً والرسل والصالحون ، ولكن هؤلاء يريدون بها الباطل، فأنت تقدمي (في زعم المبطلين اليوم) إذا تحررت من كل ما هو إلٰهي، وأنت متطور إذا لم تنكر منكراً ولا تدعو إلى معروف !

فما هذا التقدم يا عباد الله وهذا التطور إلاّ كتقدم فرعون والأنهار التي تجري من تحته ، وما هذا التطور إلاّ كتطور قارون حين أعطي ـ بزعمه ـ تلك الأموال على علم عنده ، وأين هما ؟ تذكر جيداً، تدبر القرآن، وقارن من رأيت في عصرك هذا !

يقول ربك المتعالى في سماه :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۞ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1].

أولئك كانوا أشد من قومك هؤلاء قوة ، وأقدر على عمارة الأرض ، فعملوا السدود وانشأوا الحدائق ، ونحتوا الصخر قبل أن

(١) سورة الروم ، الآيتان : ٩ و ١٠ .

تُعْرف الآلة ، وعملوا ما لم يتسنَ حتى الآن لنا مع تطور الآلـة ، فجاءتهم الرسل بلا إله الاّ الله وحده ، فعصوا وعموا وجحدوا بآيات الله ، فكان ظلماً كبيراً ، ظلموا به أنفسهم لا غيرهم ، فكانت عاقبتهم البوار وبئس القرار ، وذلك جزاء كل من كذب بأمر الله ، وكل من لم يؤد حق الخالق المنعم ، والذين يدعون اليوم أنهم مسلمون ، ومع هذا يهملون ما كلفهم الله بـه ، فأضاعـوا الصلاة وعـطلوا الزكـاة واستخفوا بالصيام ، وأهملوا الحج ، وبدلوا في سنن المرسلين ، هؤلاء ليسوا بأحسن حالاً من الكافرين ، بل يضاعف عليهم الذنب لأنهم علموا الحق وادعوه ولم يعملوا به ، وأولئك أنكروا الحق وكثير منهم لم يعلموه لحيلولة عتاة قومهم بينهم وبينه ، ومع هذا لم يستثـنِ الله منهم أحـداً ، فما بـالك بمن عـرف الحق ولم يؤده ، وادعى الإيمان ولم يعمل به ؟! ويوجه العزيز الحكيم الخطاب إلى هـذه الأمة خاصة ، فيقول :

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1] .

أرأيت ؟! إن الله استخلفنا بعد تلك الأمم التي قضى عليها لينـظر ، أنحسن صنعاً أم نكـون من المفسدين ؟ فـانعم النظر من حولك ، واحكم أنت على ضوء ما درست من كتاب الله وسنة سيد المرسلين . لقد غيـر المسلمون شـرع الله ، واختاروا عليـه شرع البشر ، قوانين وضعية تحلل وتحرم ، وتعطل وتجيز ، بلا سلطان من الله ، واختاروا رضا البشر على رضا الله ، ابتغاء أغراضٍ من الدنيا على يـدي المُـرضَى والمَـرْضَى ، ومـع هـذا لا ينـالهم إلاّ خمط وغسلين ، وبالتبعية المهينة ، وبالتلميح والتلويح فإذا قيل لهم : ما

---

(١) سورة يونس ، الآية : ١٤ .

يصرفكم عن شرع هو دينكم ، جاء به نبيكم ، حكماً شرعه ربكم ؟!

قالوا : إنما نحن عالة على العالم المتمدين ونخشى إن نحن أغضبناهم قطع المساعدات ، وقطع العلائق وحجب العلوم . لقد قال كفار مكة مثل قولهم ، فقال لهم الله ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾[1] تشابهت قلوبهم ، وتماثلت أفكارهم ، ولم يلبث أولئك غير عام أو نحوه ففتحت عليهم أبوابَ الرزق ، وجاءتهم الخيرات ببركة تطبيق أوامر ربهم ، ولو فعل هؤلاء مثلهم لفعل الله بهم مثلهم .

روى البخاري ومسلم : إن أبا عبيدة قدم بمال من البحرين حين فتحها ، فتعرض قوم من الأنصار لرسول الله ﷺ عند خروجه من المسجد ، فتبسم ﷺ حين رآهم ، ثم قال : (أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أبا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ) قالوا: أَجَلْ يا رسُولَ اللهِ . قال : (فَأَبْشِرُوا وأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ فَوَاللهِ ما الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ولَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيا كَما بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنافَسُوها كما تَنافَسُوها وتُهْلِكَكُمْ كما أَهْلَكَتْهُمْ) .

وصدق رسول الله ﷺ ، فقد فاضت على المسلمين الثروة ببركة تنفيذ أوامر ربهم وتحكيم شرعه ، حتى قال خليفتهم : « لئن أحياني الله من قابل ليبلغن الراعي في صنعاء نصيبه من هذا المال » . كانوا خير أمّة بنص صريح من هذا الكتاب الذي يتجاهلون اليوم كنوزه ، ويهملون أحكامه .

يقول جل وعلا :

---

(١) سورة التوبة : ٢٨ والتفاصيل في كتابي (فضائل مكة) .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۞ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾(١).

نعم ، خير أمة ، ولكن بشروط : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، والمعروف في الشريعة كل ما يدعو لفضيلة ، كالعبادة ، والخلق الحسن والاصلاح بين الناس ، وكل ما في حكمه ، ومن لم يحكم شرع الله فقد أتى منكراً ، ومن لم ينهه فما نهى عن منكر ، وباتمام الشروط يتغلب المؤمنون على الكافرين فيولي الكفار الأدبار ، وبتعطيلها ينعكس كل ذلك ، فلا أنتم خير أمة ، ولا يوليكم الكفار الأدبار ، بل تولوهم أنتم الأدبار بما قذفت المعصية في قلوبكم ، وما خف من إيمانكم ، وبما غضب الله عليكم قال الله تعالى : ﴿ **فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** ﴾(٢) .

المؤلف

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ ـ ١١١ .

(٢) سورة المائدة : ٩١ .

قوم نُوح

كان قوم نوح عليه السلام ، يقال لهم بنو راسب فيما أورده ابن كثير في قصة نوح ، وليس في نسب نوح عليه السلام (راسب) .

وكان قومه أول من عبد الأصنام ، بعد أن طال عليهم الأمد ، فقد جاء في خبر ولادته ـ الأرجح ـ أنه ولد بعد ألف سنة أو أزيد من وفاة آدم ، فأكثروا من الأصنام ـ كما سيأتي ـ وعظموا تلك الأصنام والطواغيت ، وضلوا ضلالاً بعيداً ، فكان قوم نوح أول من غير الاسلام الذي كان عليه آدم وبنوه ، وكان نوح أول رسول أنذر من عذاب الله ، ونادى بفساد عبادة غير الله .

ولكن القوم أصموا آذانهم وأغلقوا عقولهم واستهزؤوا بالرسول ، حتى كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا الموعظة ، وتذمروا من نصحه خلال (٩٥٠) سنة كان ينذر الجيل بعد الجيل ، فلما ضاقوا بالنقاش وتعديد الرسول الآيات ، وصل بهم الأمر إلى أن طلبوا منه أن يأتي بهذا العذاب إن كان صادقاً ، تحدياً له وتكذيباً وسخرية . فدعا نوح عليهم ، فأهلكهم الله بالطوفان ، فأغرقوا ، ونجا نوح والمؤمنون بفضل الله .

فظل لا يأتي نبي إلّا حذر قومه عاقبة كفر قوم نوح ، وما كفر

قوم بعد قوم نوح إلّا أخذهم العذاب بما اقترفت أيديهم ، إلّا من آمن وأصلح وعمل صالحاً .

وفيما قص الله علينا من قصة نوح مع قومه ، أنه كانت له معهم أربع مراحل : مرحلة الانذار ، مرحلة الجدل ، مرحلة العذاب ، ومرحلة نجاة المؤمنين ، وإن كان هذا التقسيم ليس دقيقاً لأن القرآن قد يأتي بالإنذار والجدل والهلاك في آيات يرتبط بعضها ببعض ، ليتيح للقارىء صورة متكاملة في آن واحد ، ولأن القارىء الذي يقرأ هذه السورة قد لا يقرأ الأخرى ، لسبب أو لآخر .

مرحلة الانذار :

قال الله تعالى :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۞ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۞ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾(١).

---

(١) سورة نوح : ١ ـ ٧ .

يقول الله تعالى إنه أرسل نوحاً نذيراً إلى قومه ليعبدوا الله ، أو سيأتيهم عذاب بما بدلوا وكفروا وأسرفوا ، وسيكون عذاباً مؤلماً .

فامتثل نوح عليه السلام ، أمر ربه فقام في قومه يخبرهم بأنه مرسل من الله ينذرهم عذاباً قادماً إن لم يتوبوا ويصلحوا ويطيعوا الرسول ويصدقوه بما أخبر ، فإن هم صدقوا وأطاعوا فسيغفر الله لهم ذنوبهم جميعاً تمحيصاً من لدنه جزاء استجابتهم لرسله وإيمانهم به .

وإنه مع هذا سيفسح لهم في الأجل الذي إذا حتمه الله يكون ماضياً . فما كان جواب القوم إلاَّ الرفض والاستنكار عليه أن يرسله الله ، وكأنه جاء بفاحشة فحشاء لا يجوز سماعها ، فكانوا يضعون أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا ما يقوله نوح ، ووضعوا ثيابهم على وجوههم كيلا يعرفهم فيدعوهم بأسمائهم إلى الله ، وينهاهم عن الباطل ، وكان ذلك إصراراً منهم على عدم الانقياد لرسالة نوح وعدم الاعتراف بذلك ، وتعاظموا في أنفسهم أن يدعوهم رجل منهم اختاره الله عليهم من بينهم ، وصدوا عن هذا الأمر صدود الكبراء الألداء العناديد .

غير أن نوحاً استمر يدعوهم سراً وجهراً ، سراً فيما بينه وبين من يرجو فيه الخير ، وجهراً في المحافل والندوات ؛ لكن القوم شمخوا بأنوفهم وأنفوا أن يسمعوا منه ، فقال :

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۞ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ۞ مَّا لَكُمْ

لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا * وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾(١).

ويرشدهم نوح إلى أنهم لو استغفروا ربهم لحصل لهم خير كثير ، فهو يغفر ذنوبهم بناء على طلبهم منه قائلين . . اللهم اغفر لنا . سئل الأوزاعي يرحمه الله ، كيف استغفر الله ؟! قال : قل استغفر الله . فليس الاستغفار أمراً يحتاج إلى تعلم وتلقين .

ثم إن الله يرسل الرزق من السماء على المستغفرين ، منهمراً مطراً أو غيره ، وينبت للمستغفرين الزرع ويدر لهم الضرع وتعم البركة فيكثر المال وتفيض الثروة ، ويرزق الله المستغفرين البنين الصالحين : و ﴿ **المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾(٢) .

ويجعل للمستغفرين جنات وحدائق ذات بهجة ، وأنهاراً تتفجر من الأرض ، فأي نعيم خير من هذا في الدنيا والآخرة . فاستغفروه يغفر لكم ، وينجز ما وعدكم على لسان نوح ، فالله لا يخلف وعده . ثم يسألهم نوح : ما بالكم لا ترجون من الله ما هو أحق به من عظمة ووقار ، فكل ما كان المطلوب عظيماً كان العطاء

---

(١) سورة نوح : ٨ ـ ٢٠ .
(٢) سورة الكهف : ٤٦ .

عظيماً ، ألم تروا أن الله قد خلقكم أطواراً ؟ فمن نطفة إلى علقة إلى مضغـة مخلقة وغيـر مخلقـة إلى عـظام فـروح فبـدن يمشي على الأرض ، أليس في هذه الأطوار ما يسترعي تفكيـركم ؟ أمنكم من يفعل هذا أو يخلق ذباباً أو ذرة ؟! .

ألم تـروا كيف بنى الله السماء ومهـد الأرض ، لتمشـوا في منـاكب الأرض التي تتلقى الخيرات من السمـاء ، ثم أضـاء لكم نهاركم لتحصلوا على رزقكم بالطرق التي فهّمكموها ، وأنار لكم الليل بهذا القمر الذي يضيء الدنيا ، وجعل بين الجبال فروجاً وطرقاً تسلكونها ، ولو جعلها كتلة متراصة لصعب عليكم السير خلالها ، ألم تروا أنكم نبات كنبات الأرض ، ثم يصفـرّ فيفنى ، وأنتم تقبرون بعضكم بعضاً كل يوم ، ومع هذا تستكبرون على أوامر الله ورسله ، مالكم ؟ مالكم ؟

ماذا كان جواب قومه ؟!

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾(١).

كان جواب الجاهلين ، نعم جواب الجاهلين الذين حتى في عهـدنـا هـذا نسمـع منهم لا إنكـاراً لله ، ولكن إنكـاراً على من يذكرهم ، فقد يقول له عتـل متعجرف : (أنت وش درّاك ؟!) .

وهكذا قال قوم نوح : أنت رجل منا ، من أين أتيت بهذا وأنت

(١) سورة هود : ٢٧ .

مثلنا ؟ فما الذي خصك بالعلم من بيننا ؟ وفيك عيب آخر كبير ، هو أن أتباعك الذين بادروا إلى تلبية دعوتك هم فقراء الناس ووضعاؤهم ! بادي الرأي : أي من أول ما صدعت بدعوتك اتبعك الذين ليس لهم مقام ووجاهة ، ونحن نأنف أن نكون تبعاً وخلطاء لمثل هؤلاء ! وما نراكم أفضل منا حتى تأتوا بشيء لم نوته ، فلا شك أنكم كاذبون طامعون في سلطان وشرف تكتسبونه بمتابعتنا لكم . فبأي أسلوب يتقرب إليهم الرسول ؟!

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ۞ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

عاد نوح عليه السلام ، يؤكد لهم أن هذا فضل من الله أرسله إليهم ليخرجهم من الكفر إلى الإيمان ، من الجهل إلى نور العلم ، وأنه لا يستطيع أن يرغمهم على ما لا يريدون ، غير أنه يؤكد لهم أنه

---

(١) سورة هود : ٢٨ ـ ٣١ .

لا يريد على ذلك أجراً من مال أو سلطان إلّا أن يرى قومه يعبدون الله وحده ، ثم ما حكاية (الأرذلين) إن هؤلاء قوم هداهم الله ، اتشترطون عليَّ طردهم وقد أنعم الله عليهم بعقول مدركة وبصائر نيِّرة ؟! كلّا ، لن أطردهم ، فالرسالة ليست للوجاهة والوجهاء ، إنما هي لمن أتى الله بقلب سليم ، ولكنهم قوم جاهلون ، لا يحيطون كنهاً بمثل هذه الأمور الإلٓهية .

ويعدد عليهم ما يبرئه من الادعاءات التي يطلب عادة بها المشعوذون البروز والسيادة ، فيقول : لا أدعي أني أملك خزائن الله فأرسل عليكم ما تشتهون ، ولا لي علم بالغيب وما يحدث غداً أو بعد غد ، ولا أوافقكم على ازدراء المؤمنين الذين لا تظنون لهم خيراً ، فإن من أطاع الرسول مؤمناً بالله مفرداً له بالوحدانية ، لا شك سيناله خير ، والعاقبة للمتقين .

فهل قبل قوم نوح هذا البيان الواضح الصادق ؟! كلا ، فقد كفروا وأصروا على الكفر .

قال الله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾(١).

---

(١) سورة الشعراء : ١٠٥ ـ ١١١ .

نعم ، أصرت بنو راسب على كفرها وتكذيب الأنبياء ، فسوف ترى في آخر البحث كيف أخذها الله ، والله إذا أخذ الظالم لا يفلته حتى ينال عقابه .

يقول لهم نوح : اتقوا الله الذي خلقكم إني مرسل منه إليكم ، لا أجر لي ولا مطمع دنيوي من هذه الدنيا التي تتضاربون عليها ، فالله هو خالقي وهو رازقي ، اتقوا الله قبل أن يحل بكم البوار ، ويصبحكم عذاب لا يبقي منكم على الأرض دياراً .

فيقولون : كيف نتبعك يا هذا وقد اتبعك الأرذلون ؟! أتريد أن نكون نحن وهم في صف واحد ! شريف بجانبه حقير ؟! كلا ، لن نقبل بهذا ! .

﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[1].

يكرر نوح الموعظة فيكررون الأسباب الواهية ، فيقول نوح : ما أنا إلّا رسول رب العالمين أدعوكم إلى ما هو كضوء الضحى ،

---

(١) سورة الشعراء : ١١٢ ـ ١٢١ .

حق واضح لا لبس فيه ، اعبدوا الذي خلقكم ورزقكم ، الذي ينزل الغيث ويشفي المريض ، ويحفظ المال والأهل .

فما كانت فتنتهم إلاّ قولهم : انتهِ يا نوح عن هذا السفه وهذا الإلحاح علينا ، وإلاّ سنقذفك بالحجارة ، رجماً كما يرجم المحقرون ؛ أهكذا يفعل برسل الحق المبين ؛ مهلاً ، فسيأتيكم ما توعدون ، وسيصنع نوح الفلك الذي يطفو به فوق الماء ، ويطلق الله عليكم السماء لا غيثاً مغيثاً ولكن غرقاً مغرقاً لا يترك خارج السفينة حياً يتحرك .

إنها آيات الله ، عقاب لكل من يخالفه ، عقوبات بعضها في الدنيا وأسوأها في الآخرة ، فالذين آمنوا يصدقون بما أنزل الله على رسله ، وهم يوم القيامة من الناجين .

لكن الكافرين لا يفقهون ؛ واسمع لقول الله الفصل ، وشهادته لنوح بما حاول وكرر ، ولكن الكافرين في ضلال مبين :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(١).

---

(١) سورة الأعراف : ٥٩ ـ ٦٣ .

يقول نوح عليه السلام : إني أخاف عليكم غضب الله إذا أشركتم به ، إن الذين لا يعبدون الله سيصيبهم عذاب عظيم ، ولكن الجمع (الملأ) ردوا عليه رداً قبيحاً ، فقالوا : إنك في نظرنا ضال غوي ، ولعل بعض آلهتنا أصابك بسوء ، هذه النصب التي لا تسمع ولا تنطق ، تصيب رسل الله بالجنون والهذيان ! فيؤكد نوح أنه لا شيء مما تظنون ، إنما هو ينفذ أمر الله ، رسالة إليكم من ربكم تأمركم بعبادة خالقكم، وإنه ناصح لهم أمين، وقد علمه الله ما لم يصل إلى علمهم ، أفي هذا غرابة أو عجب ؟ يا قوم اتقوا الذي بيده حياتكم وموتكم ، بيده رزقكم وحرمانكم ، اعبدوه إنه أحق وأولى من تلك التماثيل التي تصنعونها بأيديكم .

ويجادلون نوحاً ويسفهونه لظلمهم وطغواهم .

ثم يخبرنا العزيز العليم أن قوم نوح كبقية كل الذين كفروا ، إذا أفحمهم الجدل وحميت عليهم الحجة ، يتخذون أساليب الغوغاء اللجاجين ، فهم يضعون أيديهم على أفواههم ، علامة أن لا نتكلم مع من لا يفهم ، ويضعون أصابعهم في آذانهم علامة عدم السماع ، وهكذا يتبع المبطلون أساليب بعضهم ، فهم صم بكم عمي .

يقول رب الجلال :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾(1).

هكذا كانت حجة الذين كفروا ، يقول : كفرنا بما أرسلتم به ، نحن في شك مما تقولون ، هاتوا برهانكم ، أنتم بشر ، أنتم أعداء لآلهتنا تريدون صدنا عنها ! سبحان الله ، رسل ترسل لهداية البشر ، يطلبون لهم المغفرة والهداية والنجاة من العذاب ، يدعونهم إلى ربهم خالقهم ! وبشر يقولون : إنا نشك في ذلك ! إن الشك من الأمور القاتلة الموردة مهاوي الردى، فبأي أسلوب يؤمن هؤلاء؟ وعلى أي قانون يبنون حياتهم : حلالها وحرامها ، طاعتها وعصيانها ؟! إن لم يكن لهم منهج إيماني فيه يمين ويسار ، يدل على الخير وينهى عن الشر ، ولكنه ديدن الأمم ، فمنذ أن أرسل الله أول رسول ، والرسل تأمر وتنهى ، تأمر بالعرف ، وتنهى عن المنكر ، والأمم تعصى وتسدر ، تبلّغ فتنكر ، تذكر فتنسى ، والله من ورائهم محيط .

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

(1) سورة إبراهيم : ٩ - ١٠ .

كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١].

والرسل لم يدّع أحد منهم أنه ملاك أو إله ، وما قال أحد منهم : اعبدوني من دون الله ، وما قال أحد منهم : أنا أحلِّل وأحرِّم من دون الله ، بل كلٌّ قال : أنا رسول أمين أبلغ رسالة رب العالمين ، فاتقوا الله لا تتقوني ! نعم ، هذا إجماع الرسل ، واعتراض المشركين والمبطلين على الاختيار مرفوض ، فالله يختار من عباده من يشاء ، ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[٢] ، والصبر على الأذى من متطلبات التبليغ ، يشمل ذلك الرسول والعالم والواعظ والناصح ، تعددت هذه الأنواع بتعدد أهل الشر ، فإنَّ في الناس كافر يرسل الله إليه ، وجاهل على العالم أن يعلمه ، وشيطان من شياطين الأنس يتسقط هفوات العلماء والوعاظ ، فيصبر عليه ويوعظ وينصح ، وعامة قلوبهم خصبة متفتحة للمعرفة كالأرض العطشى لماء السماء .

والرسل تقول : من أين لنا بسلطان ترونه فتقبلونه ، إنما هو عند الله ، فإذا أصررتم على عنادكم صبرنا وتوكلنا على ربنا ، وسيصبحكم ذلك السلطان البرهان المبين.

لم يفد هذا ، ولم يرض الذين كفروا من الرسل إلّا بأحد أمرين : أما السكوت وترك المهمة التي أرسلوا من أجلها أو إخراجهم قسراً من أرضهم ، لذا قال قوم نوح كما أخبر المولى عز وجل :

---

(١) سورة إبراهيم : ١١ ـ ١٣ .

(٢) سورة الأنعام : ١٢٤ .

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۞ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1].

يقول المبطلون : لم نعد نحتمل جدلك ووعيدك الذي لا نصدقه ، فبرهن لنا إنك صادق ، وأنزل ما تعد به ! فيقول نوح : لست أنا صاحب ذاك ، إنما أنذرتكموه رسالة من الله ، أما الذي يأتي به إن شاء هو ربكم الذي خلقكم من نطفة مذرة ، فهل تظنون أنه غير قادر على ما تطلبون ؟! . أما أنا فقد نصحت لكم جهدي ، ولكن ما يبلغ جهد إنسان مثلي إذا كان الله قد كتب عليكم الغواية ؟! فانتظروا أمر ربكم .

ولكن الفاسقين لا يؤبون :

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾[2].

نعم ، كانوا فاسقين ، وكانوا أظلم الأمم وأطغى ، يجحدون بآيات الله ، ويكذبون رسله ويستهزئون بهم ، ونوح دائب على نصحهم وإرشادهم تسع مائة سنة وخمسين عاماً .

ولذا يشهد الله على هذه الأمة التي لم يجد فيها نصح هذه القرون الطويلة ، فيقول جل وعلا :

---

(١) سورة هود : ٣٢ ـ ٣٤ .

(٢) سورة الذاريات : ٤٦ .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾[1].

من قبل : أي قبل عاد وثمود ومن جاء بعدهم من الأمم ، كانت قوم نوح أطغى وأكفر ، ولم ينفع فيهم النصح ، خلال هذا الزمن الذي يفنى أربعة عشر جيلاً على أدنى تقدير ، ومع كل جيل يسمع نوح : آتنا بما تعدنا ، ولم يؤمن منهم إلاّ قليل .

ويخاطب الله من جاء بعدهم ، فيقول :

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾[2].

هذا وعد من الحاكم العادل : إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والله عادل يحب العدل وينزله في الأرض ، فهو يشاء أن يستخلف الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .

فالعاقبة للمتقين ، ولا عدوان ولا هلاك إلاّ على الظالمين ، الذين يريدونها عوجاً ، والله يأمر بالعدل ، والعدل سراط مستقيم لا عوج فيه .

الـهـلاك :

وجاء أمر الله ، وجعل لنوح أسباب النجاة ، وطلب منه أن يحمل ما تعمر به الدنيا بعد حين ، وأهلك القوم الكافرين ، فجرت سنة الله أنه لا يطغي طاغ أو يعتي عاتٍ أو يفسد مفسد ، إلاّ أذاقه الله

(١) سورة النجم : ٥٢ .
(٢) سورة إبراهيم : ١٤ .

لباس الخوف في الدنيا ، وتكون آخرته الخسران المبين : ﴿ **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً** ﴾[1] .

يقول الله المعبود بحق ، في هلاك قوم نوح :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[2].

وهكذا يشهد الله الشاهد الحق أن نوحاً ظل يدعو قومه (٩٥٠) عاماً ، دعاءً متصلاً ، رجاء هدايتهم ، ولكن القوم صموا آذانهم ، وأغمضوا عيونهم عن الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له . ويؤخذ من هذا .

أولاً ـ طول نفس الرسل وسعة صدورهم ؛ بحيث تحملوا عنت الشعوب ولجاجتها .

ثانياً ـ صبرهم وجلدهم وشدة رغبتهم أن تكون كلمة الله هي العليا في أرضه .

ثالثاً ـ أنه ينبغي للدعاة أن يقتفوا أثر الرسل ، فيصبروا صبرهم ، ويدأبوا دأبهم ، وينصحوا لله ورسوله وللمؤمنين حتى يصلح الله على أيديهم من يريد إصلاحه .

رابعاً ـ الرد على من قال : إن القول بأن فلاناً عاش ألف سنة أو ثلاث مائة ، وكذا ـ مثلاً ـ هو من مبالغات الأخباريين ، وهذا نوح بشر مثلهم عاش ـ فيما قيل ـ خمسين سنة قبل النبوة ، ويشهد القرآن

---

(١) سورة المعارج : ٦ ـ ٧ .

(٢) سورة العنكبوت : ١٤ .

أنه عاش تسع مائة وخمسين بعد النبوة ، أي ألف سنة .

ونعود إلى الخبر عن قوم نوح ، فقد عصوا رغم هذه القرون المتتالية من الدعوة ، ولم يجد بعد ذلك نبيهم إلّا أن يدعو عليهم ، فيستجيب الله ، فيرسل عليهم الطوفان بظلمهم ، فإذا هم أثر بعد عين ، وينجي الله نوحاً والذين آمنوا .

ويعظنا الله بهم :

أنزل الله على محمد ﷺ :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾(١) .

يقول : إنهم كذبوا عبدي ورسولي ، ونسبوه إلى الجنون ، وزجروه مهددين متوعدين إن لم يكف عنهم ما يؤذيهم من الدعوة إلى الله وترك عبادة الأوثان ليفعلنّ به كذا وكذا .

ورفع يديه إلى بارئه ، وقال : غلبت يا ربي فانصرني . فجاء أمر الله ، جاء الطوفان ، وما أدراك ما الطوفان ؟! فقد فتح الله أبواب السماء ، بمطر لم ير مثله من قبل وبئس مطر الكافرين ، ثم فجر الأرض ينابيع وعيوناً وأنهاراً ، فالتقى ماء السماء بماء الأرض فطمى وعلا الجبال ، فأغرق القوم المسرفين ، إلّا أصحاب السفينة ، فقد نجوا لأنهم آمنوا بربهم وزادهم هدى .

---

(١) سورة القمر : ٩ ـ ١٣ .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۞ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾(١).

وفي هذه الآيات نجد أن نوحاً عليه السلام ، قد ضاق صدره ونفد صبره ، فيعاتب قومه في تحدي المؤمن الواثق من قضاء الله وقدره ، فيقول : إذا كنتم استكثرتم علي قيامي بينكم وتذكيركم الله الخالق الرازق ، فإن اتكالي ومعولي على الله وحده ، فإذا لم تعودوا تطيقون رؤيتي بين ظهرانيكم ، فتظاهروا وشركاؤكم ثم جاهروا بما تريدون ، واقضوا علي ولا تنتظرون ، ومالي من أجر عليكم فالله هو الذي يأجرني ، فأنا مؤمن برسالة ربي ، فأصروا على عصيانهم فدمرهم الله ونجّى المؤمنين وأغرق الكافرين ، وهذه هي عاقبة من أُنذر وأعرض عن ذكر الله ، وإنها سنة جارية إلى يوم يبعث الله عباده .

وجاء أمر الله :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۞ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ۞ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا

---

(١) سورة يونس : ٧١ - ٧٣ .

تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۞ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۞ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ۞ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[1].

فعندما رأى نوح منهم المكر وأحس شدة تمسكهم بالكفر، لجأ إلى ربه داعياً مناجياً ، بأن هؤلاء أصروا على الحنث العظيم وتمسكوا بأصنامهم بمكر تزول منه الجبال ، وتأكيداً وحرصاً منهم على تحريض قومهم سموا هذه الأصنام واحداً واحداً ، والتسمية في مثل هذه المواقف تعني الإشادة والتبجيل ، وقد كانت هذه معبودات القوم دون خالقهم، وللشراح فيها ضروب من القول ، فمن قائل : إن هؤلاء رجال أجواد ، فلما ماتوا وسوس لهم الشيطان أن لو اتخذتم صوراً لهم كتذكرة ، ولما طال عليهم الأمد وتعاقبت الأجيال زاد التبجيل والتشريف حتى أودى إلى العبادة ، وهذا هو هدف الشيطان بادىء ذي بدء .

ولسنا بصدد الأصنام وتأريخها ، إنما هو أمر وقعت فيه أمم بعد أمم فأضلّها وأعمى أبصارها .

فلم يجد نوح وقد ضاقت به السبل وشاخ عظمه وملّ قومه بعد هذه القرون الطوال ، إلّا أن يدعو دعوته القاصمة ، ثم علل ـ عليه السلام ـ ذلك بأن بقاءهم يضل عباده المؤمنين ، بحيث تلاحظ إلى

---

(١) سورة نوح : ٢١ ـ ٢٧ .

يومنا هذا من يقول لك : انظر فلاناً يعمل من الموبقات والمعاصي ما تقشعرّ منه الأبدان ، ثم هو في غنى وعافية لسنا نحن فيها!.

وكأن هؤلاء لم يسمعوا قوله تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾(١) .

كأن نوحاً سمع مثل هذا فخاف على القلة المؤمنة التأسي بالكثرة الكافرة ، فقال : إن تذرهم يحدث ذلك أمرين سيئين لا أمراً واحداً : أولهما ـ أنهم يضلون من آمن ويفتنونهم ، وثانيهما ـ أن قد توارثوا الكفر وتواصوا به وجعلوا لهم ملة لا يحيدون عنها ، وهي أنه لا يولد لهم ولد حتى يتنادوا لتربيته تربية فاجرة كافرة ، يحذرونه من اتباع سبيل المؤمنين ، ويحببون له عبادة غير الله ، وينشئونه على ذلك.

فأوحى الله إلى نبيه أن قد استجيبت دعوتك وسيقطع دابرهم ويغرقون .

صُنع الفُلْك :

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾(٢).

---

(١) سورة الطارق : ١٧ .
(٢) سورة المؤمنون : ٢٧ ـ ٣٠ .

وأمر الله نوحاً أن يصنع الفلك ليسبح به فوق الماء ، ثم أخبره أن هناك علامة في مكان يرونه صباحاً ومساء ، ألا وهو التنور الذي يخبزون فيه طعامهم ، جعله الله آية لهم حتى لا ينسوا أو يغيب عنهم المكان فيحدث أمر الله دون أن يعلم المؤمنون ، فقال له ربه : إذا رأيت الماء يخرج في مخبزكم فأسرع إلى سفينتك ، واحمل فيها من كل شيء هو ضروري للحياة فيما بعد زوجين ، أي ذكراً وأنثى ، من الإبل والغنم والحمير وغيرها ، إضافة إلى أهلك إلاَّ من لم يؤمن منهم ، حتى الشيطان دخل السفينة ! يقال : إن نوحاً عليه السلام ، أراد أن يدخل الحمار فاستعصى كعادته ، وكان نوح في عجلة من أمره فقد كان الماء ينبع من كل مكان والسماء تنهمر ، فقال للحمار : أدخل يا لعين ! فدخل الشيطان ، فلما رآه نبي الله ، قال له : من أدخلك ؟! قال : أنت ، قلت : أدخل يا لعين فدخلت !.

وسارت السفينة بأمر ربها والقوم - من الكافرين - في هرج ومرج ، وصراخ وعويل ، ودعوات بالويل والثبور ، ولا شك أن منهم من نادى نوحاً ، قائلاً : يا نوح آمنا بما جئت به ، ولكن الله قد كان أمر نوحاً ألاّ يخاطبه في الظالمين ، وقد لبث فيهم قروناً ، (أألآن تؤمنون) ؟!.

وهلكت بنو راسب ، هلك قوم نوح الذين سلطوا فنون الأذى والعذاب على نبي الله قروناً عديدة . وكان من الهالكين امرأة نوح لم تكن من المؤمنين ، كامرأة لوط التي كفرت بنبي الله لوط ، ومن المغرقين ، ابن لنوح رفض أن يركب السفينة فأغرق فكان من الهالكين .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

وهكذا أصبح قوم نوح أثراً بعد عين ، ولم يبق حتى مساكنهم ، وجعلهم الله للناس آية لمن يخاف العذاب الشديد ، ولكل من ظلم إلى يوم القيامة عذاب جزاء على ظلمه وإسرافه في أمر الله .

نجاة نوح والذين آمنوا معه :

تقدم معك أن الله أمر نوحاً بصنع الفُلْك ، ثم أمره أن يحمل فيها من كل نوع زوجين ذكراً وأنثى للابقاء على الأنواع التي كان الله قد خلقها لعمارة هذا الكوكب.

قام نوح بأمر ربه ، فكانوا منه يضحكون ، ويقولون : يا نوح ! لم تصنع سفينة في هذه الصحراء ولا ماء تجري فيه ؟! فكان يقول لهم : ستعلمُنَّ بعد حين .

قال الله تعالى :

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۞ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۞ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2].

---

(١) سورة الفرقان : ٣٧ .

(٢) سورة هود : ٣٨ - ٤٠ .

قصة نوح مع قومه في صنع الفلك : جاء في روايات كثيرة ما مجمله : أن قوم نوح سخروا منه لصنع السفينة ـ وهذا بنص القرآن ـ غير أنهم زيادة في تحقير نبي الله ومبالغة في إيذائه عمدوا إلى أمر قبيح ، فقد أمروا سفهاءهم أن يتحينوا غياب نوح فيذهبون إلى سفينته ويتخلون فيها ، فقذرت السفينة حتى تأذى نوح بذلك ، وهذا ما كانوا يريدون ، فسلط الله عليهم مرض الجذام ، فجاء أحدهم إلى السفينة فعثر فوقع على القاذورات ، فإذا القوم يفاجأون بأن الرجل قد شفي ! فأسرعوا يتسابقون ويطرحون أنفسهم في سفينة نوح ! حتى صار آخرهم يغسل السفينة ويغتسل بغسالها ! فطهرت السفينة ونقيت مما فيها . وإن في ذلك لعبرة لأولي الألباب .

بسم الله مجراها :

وسار نوح بالمؤمنين ، من أهله وأمته إلاّ من أراد الله عذابه ، وهما زوجته وأحد أبنائه .

يقول المنجي سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۞ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا

﴿ لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

وهكذا أنجى الله الذين آمنوا ، وسارت السفينة ، وقائدها النبي المرسل يدعو ربه بين أمواج كالجبال ، وينادي ابنه الفار ليركب معه ، إن قلب الأَبِ لرحيم ، فكيف إذا كان هذا الأَبُ نبياً ، ويدعو الله ، فيأتي الجواب من السماء : ﴿ **يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** ﴾[2].

وحال بينهم الموج ، وقُضي على الفاسقين وقُطع دابرهم ، فقال الله للسماء كفاك مطراً ، وللأرض ابلعي ما أنبعت ، فجفت الأرض فحطت السفينة على جبل الجُودي ، ونزل أصحابه ناجين من عذاب لم يحط إلاَّ بالمسرفين ، يخبرنا منزل هذا القرآن فيقول :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[3].

كان مع نوح ـ كقول معظم المفسرين ـ أبناؤه : سام وحام ويافث ، ومنهم السلالة البشرية ، هكذا يقول النسابون ، إن السلالات البشرية ترجع إلى الثلاثة هؤلاء ، ولم يذكروا أن للذين نجوا مع نوح عقباً بشرياً .

وهذا يعني أحد أمرين : أما أن الذين أمنوا مع نوح هم قلة من العجائز والشيوخ الذين لم يعقبوا بعد الطوفان ، وقد وصفهم الله بأنهم (قليل) ، أو أن أولئك المؤمنين توزعوا في تبعيتهم لآل نوح فاطلقت أسماء آل نوح على الفروع البشرية على التغليب ، وهذا أمر تعرفه العرب إلى اليوم ، كل من نزل مع قوم صار منهم ، وكثير ما

---

(١) سورة هود : ٤١ ـ ٤٤ .

(٢) سورة هود : ٤٦ .

(٣) سورة العنكبوت : ١٥ .

ينسبون القبيلة إلى شيخها فيقولون : (عرب فلان ، وعرب فلان) وجبل الجُودي الذي استوت عليه السفينة لا زال معروفاً باسمه في شمال العراق ، ومن آيات الله وتصديق الأنبياء والقرآن أن بعثة أثرية اكتشفت حطام سفينة نوح فوق ذلك الجبل ، في البحوث الحديثة ، فتأكد حتى لغير المسلمين صدق القرآن فيما يقص عن الأمم الغابرة .

ونادى نوح ربه :

فلما استقر بنوح عليه السلام ، المقام ، واطمأن إلى نجاة أهله والمؤمنين ، حن إلى ولده ، وتذكر وعد ربه له ، فقال الله العزيز :

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ۞ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۞ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(1).

---

(1) سورة هود : ٤٥ ـ ٤٩ .

وهكذا جاءت قصة قوم نوح متكاملة ، يقول نوح : ابني . فيقول ربه : إنه ليس من أهلك، أي ليس مؤمناً ، وما أولياء الأنبياء إلّا المتقون ، وهذا ابن عصى أباه واتبع سبيل المجرمين ، أبوه يدعو إلى الجنة وهو ينحاز إلى أصحاب النار ، أبوه يؤمن بالله ويدعو إلى عبادته وهو يكفر بالله ويدعو إلى عبادة الأصنام ، ثم يرق قلب نوح رغم كل هذا فيطلب الله النجاة لابنه بناء على ما وعده ، فيحذره الله : لا تسألني ما ليس لك به علم . سبحانك ما أعلمك وأعدلك .

أما أنت يا نوح ومن معك ، فيقول الله جل جلاله : اهبطوا إلى الأرض في سلامة وكرامة ، تعمرون الأرض وأجعلك آدم ثانياً . أنشر من ذريتك ما يملأ الدنيا بشراً مختلف ألوانه ولغاته وأفكاره ، يكفر بعضهم بعد فأرسل الرسل تترى ، فأعيد الكرة للمؤمنين بالنجاة كما نجيتك ومن معك ، وأعيد الكرة على الكافرين والملحدين والمفسدين ، فآخذهم بصنوف العذاب والدمار وإن أمليت لهم إلى حين .

العبر من قصة قوم نوح :

يؤخذ من هذه القصة :

أولاً ـ ليس كل نبي أو مؤمن يكون أهله كلهم مؤمنين ، سنَّة الله في خلقه ، فهذه امرأة نوح وابنه، وبعدهما امرأة لوط ، والغريب أنك تسمع من عامة الناس اليوم والذين لا تفكير لهم يقولون : كيف فلان ينهى عن كذا وكذا ، وابنه أو زوجته أو أحد أهله يعمل كيت وكيت ؟!

ثانياً ـ إن النبي قد لا يشفع في الكافرين من أمته ، كما جاء عن سيد الكائنات في حديث (الكوثر) .

ثالثاً - إن ليل الباطل مهما طال له صبح باهر ونهار ناهر ، وأن أهلِ الباطل من كفار وظلمة ومسرفين سيحيق بهم ما عملوا عاجلاً أو آجلاً ، دنيا أو آخرة .

رابعاً - إن العاقبة للمتقين ، وأن الضعفاء والمصلحين وأصحاب الحقوق مهما اضطهدوا ينصرهم الله إذا كانوا ممن يتقون الله ويصلحون في الأرض ولا يفسدون ، و ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ** ﴾[1] ، ﴿ **وإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ** ﴾[2] .

ملخص قصة نبي الله نوح :

ذكر النسابون في نسب نوح أنه[3] : نوح بن لمك أو لامك ، والإسم فيما يبدو واحد إنما الاختلاف في النطق ، فالأول في العربية والثاني عند أهل الكتاب ، ابن متوشلح بن خنوخ - وهو إدريس - ثم إلى شيت بن آدم .

هذا ما جرى عليه الناس ، وليس للوارث إلّا ما قدم المورِّث ، وإلّا فإن هذه البنبنة قد لا تكون محفوظة حفظاً جيداً من عهد آدم عليه السلام .

قالوا[3] : ولد بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة ! وقالوا : بل بعد مائة وست وأربعين سنة ! وكان بينهما عشرون قرناً(؟!) .

---

(١) سورة النحل : ٩٠ .

(٢) سورة النساء : ٥٨ .

(٣) سبائك : ١٢ . قصص الأنبياء : ٦٧ .

وأقول : القول الأول لا يعول عليه لأحد سببين : أما أنه غير صحيح البتة ، أو أن نسبه المتقدم غير صحيح ، لأنهم عدوا بينه وبين آدم سبعة جدود ، لو قسمت بينهم هذه المدة ما لحق بعضهم عشرون سنة ، إلّا أن يكون في النص غلط .

أما القول الثاني فلا يبعد عن الأول ، فكيف (١٤٦) = عشرين قرناً ؟! وحتى لو فرضنا أن القرن هنا مقصود به الجيل فإن الأمر لا يستقيم ، فالجيل أقل فترة له عشرون سنة ، أي ٢٠ × ٢٠ = ٤٠٠ سنة ولا يستقيم هذا الاستنتاج من جهة أخرى ، هي أنهم ما عدوا بينه وبين آدم غير سبعة ، والتقدير الوسطي للأجداد = ٤٠ سنة ، أي ٧ × ٤٠ = ٢٨٠ سنة ، ويستنكر هذا إذا علمت أن القوم كانوا يعيشون بالمئات من السنين، فهذا نوح نفسه عاش نبياً داعياً (٩٥٠) سنة ، وترى في سيرة إبراهيم عليه السلام ، أن بعض أجداده عاش (٦٠٠) سنة .

من هذا يؤخذ أن الأقوال في زمن مولد نوح لا يستساغ الأخذ بها .

وروى ابن كثير عن رجل قال : يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال : (نعم مكلم) . قال فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : (عشرة قرون) . والحديث على شرط مسلم .

وحديث آخر رواه البخاري : (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام) .

وهذه الأحاديث الصحيحة هي التي يؤخذ بها في هذا الموضوع، لسببين: أولهما ـ أنها عمن لا ينطق عن الهوى، وثانيهما ـ أن عشرة قرون زمن معقول ، إذا اعتبرنا القرن مائة سنة .

ونوح نبي مرسل من أولي العزم من الرسل ، وهم خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، عليه وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام .

فلما عبدت الأصنام ـ ولم تعبد قبل قوم نوح ـ أرسله الله إلى قومه ، وقد تقدم معك في أول هذا الفصل (قوم نوح) مخاطبة نوح قومه ودعوتهم ليلاً ونهاراً ، ومخاطبتهم سراً وجهراً ، وإصرارهم ، ثم دعوة نوح عليهم ، وإفناء الله إياهم .

مقدار عمر نوح عليه السلام : قيل : بعث ابن خمسين سنة ، وقيل : ابن ثلاثمائة وخمسين ، وقيل : ابن أربع مائة وثمانين سنة[1] . والمرجح أنه ابن خمسين سنة ، ثم عاش يدعو قومه تسع مائة وخمسين عاماً بنص القرآن ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾[1] .

ثم أرسل الله الطوفان فأغرق قومه ، ونجا نوح وأهله ومن آمن معه ، فنزلوا بسفح جبل الجودي بالعراق ، وقيل عمروا قرية الأربعين، كذا سموها لأنهم[2] كانوا ـ على زعم هذه الرواية ـ أربعين شخصاً. وشهد الله أن البشر بعد نوح كانوا ذريَّة من نجا معه ، فقال عز من قال : ﴿ **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ** ﴾[4] .

---

(١) سورة العنكبوت : ١٤ .
(٢) المرجعين السابقين ، وغيرهما .
(٣) سورة الإسراء : ٣ .
(٤) سورة الصافات : ٧٧ .

وكان نوح ـ كما تقدم معك ـ أمر أن يحمل من كل نوع زوجين حتى الوحوش والسباع ، فجعل سفينته بارتفاع ثلاث مائة ذراع وجعلها ثلاث طبقات : السفلى للبهائم ، والوسطى للبشر ، والعليا للطيور . ودخل إبليس متعلقاً بذنب الحمار !، وعطس الأسد فخرجت من أنفه الهرة ، فرآها الفأر فتخبأ !. أما طول السفينة فاختلف فيه كثيراً ، فقيل : ثمانون ذراعاً ، وقالوا : بل ثلاث مائة ذراع ، في عرض خمسين ذراعاً ، وقيل بل ست مائة في عرض ثلاث مائة . . الخ .

وقيل إن نوحاً عليه السلام كان اسمه عبد الغفار ، فجاءه كلب بشع الخِلقة ـ ربما يكون أرسله الله ـ فقال نوح : ما أكرهني لخلقك أيها الكلب ! فنطق الكلب وقال : يا عبد الغفار ، أتكره المخلوق أم الخالق . أي إذا كنت تكره المخلوق فإنه لم يخلق نفسه ، وكأنك تعترض على خلق الله .

فبكى عبد الغفار حتى ناداه الله : يا نوح ، قد غفرت لك . فمن يومها سمي نوحاً .

وهذه أخبار ، والأخبار إذ لم ترد في كتاب الله وسنة نبيه ، فلك الأخذ منها والرد .

عَــــادٌ

قومُ عادٍ : قبيلة عربية النسب والموطن ، عاشت في جنوب الجزيرة العربية ، في أحقاب موغلة في التأريخ ، وفي البحوث المقبلة سنحاول تقريب عصرها إلى ذهن القارىء ، إن شاء الله .

وقد أنعم الله على قوم عاد بنعم القوة والغِنَى ، فأثروا وتنعَّموا ، ثم بغوا وطغوا وتجبَّروا ، فكذبوا نبيهم وسفهوا أحلامه ومن معه ، وعاثوا في الأرض فساداً ، وقهروا من حولهم من الأمم ، فسلط الله عليهم عذابه ، وصبحهم عقابه ، فأصبحوا كيوم أمس الدابر ، وصاروا مضرب المثل في البغي ، والهلاك . وسترى فيما يأتي ما قال عنهم أصدق كتاب يقرأ على وجه الأرض .

نسب عاد :

يكاد يجمع نسّابو العرب أنهم : بنو عاد بن عوص ـ بالصاد المهملة ـ ابن إرم بن سام بن نوح[1] . وليس كتابنا هذا كتاب نسب ، إنما أتينا بهذه النبذة للإيضاح ، وفي آخر الكتاب شجرة بنسب معظم القبائل والأمم المبادة .

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ص ٤٦٢ نشر دار المعارف المصرية ، سبائك الذهب للسويدي : ص ١٥ ، المكتبة التجارية بمصر .

ويستشف ، من القرآن الكريم أن عاداً عادان ، الأولى والثانية ، فهذا نسب عاد الأولى ، أما عاد الثانية فهي بقية الأولى ، وسنبين في البحوث المقبلة فَنَاءَ كل منهما .

مساكن عاد :

من كل الكتب التي تتحدث عن الديار والتي طرقت هذا الباب نعرف أن مساكن عاد كانت : بين اليمن والبحرين (المنطقة الشرقية اليوم) وعمان ، أي منطقة الربع الخالي اليوم ، وهو ما كان يعرف جزؤه الجنوبي بالأحقاف ، والشمالي الشرقي برمل يبرين ، وهي واحة[1] لا زالت قائمة ، ويسمى في كثير من المراجع برمل وبار ، وهي قبيلة شقيقة لعاد الأولى ، وهذا الرمل اليوم غير قابل للسكنى الدائمة ، فهو يتكون من الرمال السائية التي تنقلها الرياح ، ولا ينزله سوى البادية الرحَّل ، ويستنتج أمران : أولهما : أنه لا بد أن إقليم حضرموت الملاصق للأحقاف كان تحت نفوذ هذه القبيلة القوية . وثانيهما : إن الرمل ـ فيما يبدو ـ لم يكن بهذه الضخامة وهذا الشمول ، وهو ما يتضح لك من نصوص نحن مقبلون عليها ، تقول إن مدينة (إرم ذات العماد) مطمورة تحت الرمل .

فإذا توصلنا إلى تصويب هذا الرأي ، فيظهر جلياً أن المدينة بنيت قبل أن يصل الرمل إلى مكانها .

---

(٢) الواحة اسم غير عربي ، ولكنه أصبح معروفاً حتى لدى العامة . ذكرت أصله في كتابي (معجم الكلمات الأعجمية والغريبة في التأريخ الإسلامي) .

قوة عاد :

ما قيل عن عاد من قوة وجبروت ، وما قيل عن ملكها شدَّاد بن عاد ، كثير ، منه ما يصدقه العقل ومنه ما لا يصدقه ، فقد بالغوا في قوة القوم ، وفي طول وعرض أجسامهم ، وفي ثروتهم التي تأخذ باللب ، وكما قلت أنفاً إن هذا الكتاب يركز على ما جاء في أصدق المراجع (كتاب الله الكريم) الاّ أن الربط في موضوع كهذا يتطلب إعطاء فكرة تأريخية ولو موجزة ، وبينما أنا أقلب صفحات التأريخ استرعى انتباهي ما كتبه عن (إرم) ياقوت الحموي في معجم البلدان ، فكان تحفة تأريخية أدبية فيها من المبالغة ما لو صح لِعَادٍ عُشره لكانت أمة هائلة القدرات ، ولذا فقد عنّ لي أن أنقله لك بحذافيره ، فإذا فرغت منه تجد رأيي يتبعه .

يقول ياقوت : إِرَمُ ذَاتُ العِمَادِ : وهي إِرَمُ عاد ، يُضاف ولا يُضاف، أعني في قوله، عز وجل: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَاد**﴾ فمن أَضاف لم يَصِرفْ إِرَمَ ، لانه يجعله اسم أُمِّهم ، أو أسم بلدة ، ومن لم يُضِفْ جعل إرم اسمهُ ولم يصرفه ، لأَنه جعل عاداً اسم أَبيهم . وإرمَ اسم القبيلة ، وجعله بدلاً منه . وقال بعضهم : إرَمُ لا ينصرف للتعريف والتأنيث ، لأَنه اسم قبيلة ، فعلى هذا يكون التقدير : إرمُ صاحبُ ذَاتِ العماد ، لأن ذاتَ العماد مدينة . وقيل : ذات العماد وصف ، كما تقول المدينة ذاتُ الملك . وقيل : إرم مدينة ، فعلى هذا يكون التقدير بعادٍ صاحب إرَمَ . ويُقْرَأُ بعادِ إرَمِ ذات العماد ، الجرُّ على الإضافة ، فهذا إعرابُها . ثم اختلفَ فيها مَن جعلها مدينةً ، فمنهم من قال : هي أرض كانت واندَرَسَتْ ، فهي لا تُعرَف . ومنهم من قال : هي الاسكندرية ، وأكثرهم يقولون : هي دمشق ؛ وكذلك قال شُبيب بن

يزيد بن النعمان بن بشير :

لولا التي عَلقَتْني من علائقها، لم تُمسِ لي إرَمٌ داراً ولا وطنا

قالوا: أراد دمشق ؛ وإياها أَراد البحتُري بقوله :

إليك رحَلْنا العِيسَ من أَرض بابلٍ نَجُوزُ بها سَمْتَ الدَّبور ونَهتدي
فكم جَزَعتْ من وَهدة بعد وهدةٍ، وكم قَطَعَتْ من فَدْفَد بعد فدفدِ
طَلَبْنَـك من أُمّ العراق نَـوازعـاً بنا، وقصور الشام منك بمرصدِ
إلى إرَمٍ ذاتِ العمـاد، وإنَّهـا لَموضعُ قصدي، مُوجِفاً، وتعمُّدِي

وحكى الـزمخشـري أَنَّ إرَم بلد منـه الإسكنـدريـة . وروى آخرون أَنَّ إرَم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، باليمن بين حضـرموت وصنعـاء ،من بناء شدّاد بن عاد ، وَرَوَوْا أَن شْداد بن عاد كان جبّاراً ، ولما سمع بالجنة وما أَعدَّ الله فيها لأَوليائه من قصور الذهب والفضة والمساكن التي تجري من تحتها الأنهار ، والغُرَف التي من فوقها غُرَفٌ ، قال لكبرائه : إني متخذٌ في الأرض مدينـة على صفة الجنة ، فوكلَ بذلك مائة رجلٍ من وكلائه وقهارمته ، تحت يد كل رجل منهم أَلف من الأَعوان ، وأَمرهم أَن يطلبوا فضاءَ فلاة من أَرض اليمن ، ويختاروا أطيبها تُربةً ، ومكنهم من الأَموال ، ومثَّل لهم كيف يعملون ، وكتب إلى عُمَّاله الثـلاثة : غـانم بن عُلوْان ، والضحَّاك بـن عُلوان، والـوليد بن الـريَّان ، يـأْمرهم أَن يكتبـوا إلى عُمَّـالهم في آفـاق بُلدانهم أَن يجمعـوا جميـع مـا في أَرضهم من الـذهب ، والفضة ، والـدرّ ، واليـاقـوت ، والمسـك ، والعنبـر ، والـزعفران ، فيـوجهوا بـه إليه . ثم وجّـه إلى جميـع المعـادن ، فاستخرج ما فيها من الذهب والفضة ، ثم وجه عمَّاله الثلاثـة إلى الغواصين إلى البحار ، فاستخرجوا الجواهر ، فجمعوا منهـا أَمثال

الجبال ، وحُمِلَ جميع ذلك إلى شدّاد . ثم وجهوا الحفّارين إلى معادن الياقوت ، والزبرجد ، وسائر الجواهر ، فاستخرجوا منها أمراً عظيماً . فأَمر بالذهب ، فضُرب أَمثال اللبِـن . ثم بنى بذلك تلك المدينة ، وأمر بالدرّ ، والياقوت ، والجزع ، والزبرجد ، والعقيق ، ففُصِّصَ به حيطانها ، وجعل لها غُرَفاً من فوقها غُرَفٌ ، معمّدٌ جميع ذلك بأَساطين الزبـرجد ، والجـزع ، والياقـوت . ثم أَجرى تحت المدينة وادياً ، ساقه إليها من تحت الأَرض أربعين فرسخاً ، كهيئة القناة العظيمة . ثم أَمر فـأُجري من ذلـك الوادي سـواقٍ في تلك السكـك ، والشوارع ، والأَزقّـة ، تجري بـالماء الصـافي . وأَمـر بحافتيْ ذلك النهر وجميع السـواقي ، فطُليَت بـالذهب الأَحمـر ، وجُعِلَ حصاه أَنـواع الجواهـر : الأَحمر ، والأَصفـر ، والأَخضر ، فنصب على حافتي النهر والسواقي أَشْجاراً ، من الذهب ، مُثْمرة . وجعل ثمرها من تلك اليواقيت ، والجواهر ، وجعل طول المـدينة اثني عشر فرسخاً ، وعرضها مثل ذلك . وصيّر صُورها عالياً مشرفاً ، وبنى فيها ثلاثمائة ألف قصر ، مفصّصاً بواطنُها وظواهرُها بأَصناف الجواهر . ثم بنى لنفسـه في وسط المدينـة ، على شاطىء ذلـك النهر ، قصراً مُنيفاً عالياً يُشرف على تلك القصور كلها . وجعل بابها يَشرعُ إلى الوادي ، بمكان رحيب واسع . ونصب عليه مِصْرَاعين من ذهب ، مفصَّصَين بأَنواع اليواقيت . وأَمر بـاتخاذ بنـادق من مسكٍ وزعفران ، فأُلقِيَتْ في تلك الشوارع والطرقات . وجعل ارتفاع تلك البيوت ، في جميع المدينة ، ثـلاثمائـة ذراع في الهواء . وجعـل السور مرتفعاً ثلاثمائة ذراع مفصَّصاً خارجه وداخله بأَنواع اليواقيت وظرائف الجواهر . ثم بنى خارج سور المدينة أكماً بدور ثلاثمائة أَلف منظرة بِلَبِـن الذهب والفضة عالية مرتفعة في السماء ، محدقة بسور المدينة ، لينزلها جنودُه ؛ ومكث في بنائها خمسمائة عام . وإن

الله تعالى أحب أن يتّخذ الحُجّة عليه ، وعلى جنوده ، بالرسالة والدُّعاء إلى التوبْة والإنابة ، فانتَخَبَ لرسالته إليه هوداً ، عليه السلام ، وكان من صميم قومه وأشرافهم . وهو في رواية بعض أهل الأثر هود بن خالد بن الخُلُود بن العاص بن عمليق بن عاد بن إرم بن سام بن نوح ، عليه السلام . وقال أبو المنذر : هو هود بن الخلود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح ، عليه السلام ؛ وقيل غير ذلك ولَسنْا بصدَدَه . ثم إن هوداً ، عليه السلام ، أتاه فدَعَاه إلى الله تعالى وأمره بالإيمان ، والإقرار بربُوُبية الله ، عز وجل ، ووحدانيته ، فتَمَادَى في الكُفْر والطُّغْيان ، وذلك حين تمّ لمُلكه سبعمائة سنة . فأَنذَرَه هود بالعذاب ، وحَذَّرَه وخَوَّفَه زوال ملكه ، فلم يرتدع عما كان عليه ، ولم يُجبْ هوداً إلى ما دعاه إليه . ووافاه الموكلون ببناء المدينة ، وأخبروه بالفراغ منها . فعزم على الخروج إليها في جنوده ، فخرج في ثلاثمائة أَلف من حَرَسه وشاكريّته ومواليه ، وسار نحوها ، وخلّف على ملكه بحضرموت وسائر أرض العرب ابنه مرْثَد بن شَدَّاد . وكان مرثد ، فيما يقال ، مؤمناً بهُود ، عليه السلام ، فلما قرب شداد من المدينة ، وانتهى إلى مرحلة منها ، جاءت صَيْحَةٌ من السماء ، فمات هو وأصحابه أجمعون ، حتى لم يَبْقَ منهم مخبِرٌ ، ومات جميع من كان بالمدينة من الفَعَلة ، والصُّناع ، والوكلاء ، والقهارمة ، وبقيتْ خلاءً ، لا أَنِيسَ بها . وساخت المدينة في الأَرض ، فلم يدخلها بعد ذلك أَحد ، إلا رجل واحد في أيام معاوية ، يقال له : عبد الله بنِ قلابة ، فإنه ذكر في قصة طويلة تلخيصها : أَنَّه خرج من صنعاء في بُغاء إبلٍ له ضَلَّتْ ، فأَفْضى به السَّيْرُ إلى مدينة صِفتُها كما ذكرنا ، وأخذ منها شيئاً من بنادق المسك ، والكافور وشيئاً من الياقوت . وقصد إلى معاوية بالشام ، وأخبره بذلك ، وأراه الجواهر والبنادق ، وكان قد اصفرَّ

وغيّرتـه الأَزمنـة ، فأَرسـل معاويـة إلى كعب الأحبار ، وسـأله عن ذلك ؛ فقال : هذه إرَمُ ذات العماد التي ذكرها الله ، عز وجل ، في كتابه ، بناها شداد بن عاد ، وقيل : شداد بن عمليق بن عُـوَيْج بن عامر بن إرم ؛ وقيل في نسبه غير ذلك ، ولا سبيل إلى دخولها ، ولا يدخلها إلا رجل واحد صِفَتُه كذا . ووَصَفَ صِفَةَ عبد الله بن قِلابة ؛ فقال معاوية : يا عبد الله ! أَما أَنت فقد أَحسنْتَ في نُصْحنا ، ولكن ما لا سبيلَ إليه ، لا حِيلَةَ فيه . وأَمر له بجائزة فانصرف . ويقال : إنهم وقعوا على حفيرة شـداد بحضـرموت ، فإذا ببيت في الجبـل منقور ، مائة ذراعٍ في أَربعين ذراعاً ، وفي صدره سريران عظيمان من ذهب ، على أَحدهما رجل عظيم الجسم ، وعند رأسـه لوح فيه مكتوب :

إعتبِـرْ يـا أيهـا المغـ ... رور بـالعمر المـديـدِ

أَنـا شـدادُ بـن عـاد، ... صاحب الحصن المشيدِ

دَانَ أَهـلُ الأَرض طُـرّاً ... لي من خَـوْف وعيـدي

فـأتـى هـود، وكُـنَّـا ... في ضلال، قبل هـودِ

فـدعـانـا، لـو أجَبنـا ... ه، إلى الأمـر الـرشيـدِ

فَـعَـصَـيـنَـاه ونـادى ... ما لكم، هل من محيد؟

فـأَتتنَـا صَـيْحـةٌ، تَـهـ ... ـوي من الأُفق البعيـدِ

قلت : هذه القصّة مما قدمنا البراءَة من صحّتها وظننا أَنها من أَخبار القصَّاص المنمَّقة وأَوضاعها المزوَّقة .

انتهى كلام ياقوت بما فيه وعلى ما فيه ، غير أن مستقرىء

التأريخ يجد أن عاداً وثمود والفراعنة الذين بنو الأهرامات لا تبعد عصورهم عن بعض(١) ، ولكل من الأمتين الأخريين بل وللأنباط ، مآثر لا زالت قائمة هي - إن استثنينا ما ذكر لعاد من ثروة - تفوق ما بنت ، والذي يبدو لي أن تلك العصور كانت عصور نهضة وقوة وثروة وافرة ، وإلاّ فإننا على ما لدينا اليوم من أموال وثروات لو أردنا أن ننحت الصخر بأيدي الرجال لما تيسر لنا ما في مدائن صالح والبتراء ، وقد ذكر الله أن القوم كانوا أشد قوة وبأساً .

أسباب هلاك عاد

سبق معك أن الله كان قد مكن لعاد في الأرض ، وأمدهم بالأموال والبنين ، وفتح عليهم أبواب السماء ، فغرسوا الحدائق ، واقتنوا النعم ، وبنوا المصانع والحصون ، والدارات الفارهة ، فامسوا بنعمة ليس عليها أحد من العالمين ، فساقهم هذا إلى البطر وغمط الحق والبغي والعدوان ، فأرسل الله إليهم أخاهم هوداً نبياً ، فكذبوه وآذوه ، فحاق بهم ما كانوا يعملون .

وكانوا يفضلون عبادة الأوثان ، والعكوف على الأصنام على دين الله القويم ، ويرون ساداتهم وأُمراءهم أحق بالاتباع من هود ، عليه السلام ، فحاق بهم ما كانوا يعملون فهلكوا .

أما عاد الثانية فيؤخذ من مجموع أقوال المؤرخين أنهم بقية من نجا من العذاب ، فقد جاء في تأريخ مكة : أن عاداً أمحلت ديارها واشتد بها القحط ، فأرسلت وفداً إلى البيت الحرام يدعون الله

---

(١) هؤلاء أقدم بكثير من فرعون موسى ، والاّ فانه من المسلم به أن فرعون موسى وقومه من آخر الأمم المبادة بالعذاب المعلن عنه في القرآن الكريم .

ويستسقون ، وأن العذاب أحاط بهم في غياب الوفد حيث أمطروا العذاب الشديد ، وكل الأمم اذا أُخِذت واهلكت ينجي الله رسوله والذين آمنوا معه ، وهكذا نجا هؤلاء وآمنوا ـ فيما يبدو ـ فكان منهم لقمان الحكيم ، الذي حكمهم ألف سنة ، وحوله أيضاً أساطير سنذكرها ونذكر نبذة عن هود بعد هذا الفصل .

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

فاخبر الله سبحانه وتعالى أنه العادل ، يهلك الذين كفروا بظلمهم ، وينجي المؤمنين لقاء حسن صنيعهم ، وأن نجاة المؤمنين وعد قطعه العزيز الحكيم على نفسه ، ولا يخلف الله الميعاد ، ومن هنا قلنا : إن هؤلاء الرهط قد نجوا ، فلما رأوا ما حل بقومهم من سوء العاقبة انضموا إلى هود والذين معه ، فصاروا أمة صالحة ، عرفت فيما بعد بعاد الثانية .

ثم يأخذ العزيز المتعال في قص أخبار عاد ، وما أحدثت بكفرها من عصيان وجبروت وعبادة غير رب العالمين ، فقال وهو أصدق القائلين :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾(٢).

---

(١) سورة يونس : ١٠٣ .

(٢) سورة الأعراف : ٦٥ و ٦٦ .

يقول جلّ وعلا :

أرسلنا رسولنا هوداً إلى قوم عاد ، وكان رجلاً منهم ، فدعاهم إلى عبادة ربهم وحده ونبذ عبادة الأصنام ، وما أرسل الله رسولاً إلّا داعياً إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ولكن عاداً استكبرت ولم تر من حق هود ، عليه السلام ، أن يدعوهم إلى غير ما ورثوا عن آبائهم وأجدادهم من أسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان ، وعبدوها من دون الله ، ولم يكتفوا بالعصيان والكفر ، ولكنهم سفهوا رأي نبيّهم ، وجاهروه بأنه كاذب .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(1) .

يقول هود ـ عليه السلام ـ ما أنا بسفيه ولكني رسول إليكم من الله ، أبلغكم أوامر ربكم الذي خلقكم ومتعكم بما انتم فيه ، وما أنا لكم إلّا من الناصحين . ويطول الجدل ، فيقول : أرأيتم أن هذا من العجب أن ينزل الله رسالته على عبد من عباده ، من انفسكم تعرفونه يذكركم ويعظكم ويعلم من الله ما لم تعلموا، ألم تعلموا ما حل بقوم نوح ؟ إذ أرسل الله إليهم رجلاً منهم فكذبوه فأغرقهم ؟ وألم تروا ما متعكم الله به زيادة عمن سبقكم هذه الأجسام المبسوطة طولاً

---

(1) سورة الأعراف : ٦٧ ـ ٦٩ .

وعـرضاً ، فـاذكروا ـ يـا قوم ـ نعم الله عليكم ، لعله يـديمها لكم ويجعلكم من الأمم الصالحة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۞ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾[1].

فلما طال الجدال ، قال الذين كفروا : أتيتنا لنعبد الله وحده ونترك ما ورثنا عن آبائنا وأجدادنا من آلهة كانوا يعبدونها ، فإن كنت صادقاً فآت بما تعدنا به . فلما يئس منهم نبي الله هود ، قال : لقد حق عليكم القول، وجاءكم لا محالة رجس وغضب من ربكم، أما تتقون الله الذي خلقكم من عدم ؟ أتحاجون في أصنام صنعتموها بأيديكم وسميتموها بأسماء ترغبونها ما لله فيها اسم ، ولا أمر بها ، فانتظروا وعدوا الأيام والليالي ، وأنا معكم ، وسترون أمر الله .

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾[2].

فحاق بعاد ما كانوا به يستعجلون ، ونجى الله هوداً ومن آمن معه ، وقطع دابر القوم الكافرين المكذبين ، وهو وعد من الله لكل المؤمنين ، لا سبيل عليهم ولا يخذلون .

---

(١) سورة الأعراف : ٧٠ ـ ٧١ .

(٢) سورة الأعراف : ٧٢ .

مجادلة ثانية بين هود وقومه :

يقول الله سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۞ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾(١).

يكرر الله جل جلاله ـ وتكراره للتأكيد ـ أن هوداً كان أخا عاد ، أي رجل منهم يعرفون نسبه وسيرته ، ليكون أعرف بأساليب اقناعهم وأكثر اطلاعاً على أنواع جدلهم ، وأعلم بما هم فيه من نعم ، وما كانوا فيه قبلها ، ثم إنه لم يكلفهم مالاً ولا جهداً ، ولا كثيراً أو قليلاً مما يملكونه ويشحون به ، إنما طالبهم بعبادة الله وحده ، الذي خلقهم مما يعلمون ومما لا يعلمون ، وأكد لهم أنه لا إله غيره ، وما يعبد من دونه إلّا مخلوقاً لا ينفع ولا يضر ، وأن الذين يعبدون هذه الأرجاز من دون الله مفترون عليه وعلى العباد ، وهم كاذبون ، ولعنة الله على الكاذبين.

ويكرر هود للإقناع وعسى من يصدق ، فيقول : يا هؤلاء ، يا قومي ، يا عشيرتي ، أنا لا أطلب منكم أجراً ، إنما أنا مرسل ، ومرسلي هو الذي يأجرني ، أليست لكم عقول تفهمون بها ، ألا

---

(١) سورة هود : ٥٠ ـ ٥٢ .

تفقهون ؟! إنكم لو استغفرتم الله وتبتم مما اقترفتم من عبادة الأصنام والكفر بالله والبطر والرياء ، لأرسل الله عليكم الغيث المنهمر ، ولزادكم قوة ومنعة ، فأكلتم من بين يديكم ومن خلفكم ، فلا تتولوا بما اقترفتم من إجرام ، وأنا أدعوكم إلى الله ، العزيز الغفار .

﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾[1].

وهكذا يصل الجدل إلى الضجر والتبرم ، وهو النهاية لكل مناقشة ، فتقول عاد ـ وما أكفر عاد ـ : لم نر عندك بينة تثبت ما تقول ، ولسنا بمصدقيك ، وما نظن إلّا أن بعض هذه الأصنام التي حاربتها قد أصابك بضر ، ألم تر ونحن أخبر منك وأكثر تجربة أننا ننحر لها ، فتشفي سقيمنا وتنزل الغيث من السماء ، ما نعرف ربك الذي تدعونا إليه ؟! فيجهر هود ليزيد في اقناع من بقي منهم يرجىء ، فيقول : (إني أشهد الله ، واشهدوا أني بريء مما تشركون) أي لا أرى لما تعبدون إلّا البوار والخسران في الدنيا والآخرة ، فأنتم وأصنامكم ومن في الدنيا جميعاً كيدوا لي ، وعجلوا بما تقدرون عليه . فما أسباب هذا التحدي من هود ؟! اسمع السبب :

---

(١) سورة هود : ٥٣ ـ ٥٥ .

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾(١).

يقول هود ـ عليه السلام ـ ذلك أني توكلت على الله وهو حسبي ، ومن توكل على الله كفاه ، ما من شيء على وجه الأرض من دابة ، انسان أو حيوان أو حشرة ، إلاّ زمامها بيد الله الواحد القهار ، إنه الحق العادل لا عوج فيه ، وها أنا قد بلغتكم ما أرسلني ربي به ، فإذا عصيتم فإن الله يستخلف في الأرض غيركم ، ويهلككم بذنوبكم ، وبغيكم لا يضره ذلك وما بعده من أمم تكفر ، إنما يضرون أنفسهم ، إنه الحاكم الحافظ المحيط بكل ما في السموات والأرض.

فكيف كانت عاقبة هود بعد ذلك ؟!

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۞ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۞ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾(٢).

---

(١) سورة هود : ٥٦ ـ ٥٧ .

(٢) سورة هود : ٥٨ ـ ٦٠ .

ويقص علينا رب العزة في هذه الآيات أنه أنجز وعده لنبيه هود ، فأحاط بالقوم سوء العذاب ، ونجّى الله عبده ورسوله والمؤمنين برحمته ورضوانه ، من ذلك العذاب الغليظ ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

عاقبة المتكبرين :

ويرينا الله عاقبة المتكبرين ، فيقول جل وعلا :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾(١).

وهكذا أحاق بعادٍ استكبارها وبغيها ، فقد ركبها الغرور لما أوتيت من قوة في الأموال والأولاد والأجسام ، فكان غرورهم بقوتهم مضرب المثل لمن جاء بعدهم ، ولم يسبقوا إليه ، أما اغترارهم بالأموال فقد جاراهم فيه قارون ، فأخذ المثل عنهم ، أما اغترارهم بالأجسام وجمعهم إليه الضلال فكما قال حسان : « جُسُم البغال وأحلام العصافير » . ولو تدبروا ما خلق الله من حولهم من انسان وحيوان والطير السابحات بين السماء والأرض ، وما رفع الله من سماء بغير عمد ، وهذه الأرض التي لم يدركوا أطرافها رغم قوتهم ، وما وضع في أجسامهم العظام من دقائق الأمور التي لا يستطيعون خلق

---

(١) سورة فصلت : ١٥ ـ ١٦ .

مثال ذرة منها ، كالبصر والسمع والشم ، وغير ذلك كثير ، أقول : لو تدبروا شيئاً من هذا لعرفوا أنهم أهون عليه من رِجْل نملة .

وهكـذا لم يعاقبهم رب العبـاد إلّا بالـريح ، وكـأنهم حطام الأرياف تقشُّـه الريح من واد إلى واد، أجراها عليهم في أيام لم يعرفوا مثلها في نعيمهم وعزهم ، فهي ريح عاتية باردة ذات صرير مخيف ، فكانت أيامها أنحس ما عرفوا بل ما عرف من كان قبلهم ، دامت عليهم سبع ليال وثمانية أيـام بلا انقـطاع ولا إمهال ، حتى أبادت ما أتت عليه ، ولضخامة أجسامهم صورهم الله بعد العذاب بأنهم كالنخل الذي انقلع من أصوله (كأعجاز نخل منقعر) .

ولو كان هذا العذاب كافياً لكان كما قال أبو العتاهية :

ولو أنّا إذا متنا تركنا لكان الموت غاية كـل حيٍّ

ولكنا إذا متنـا بعثنا ونسـأل بعده عن كـل شيءٍ

فلم يغنِ عن عاد عذاب دنياها بل كل إنسان يكفر أنعم ربه لن يكون أحسن مصيراً من عاد وثمود ، وكل الأمم التي كفرت كذلك ، ولكن عذاب الآخرة أخـزى وأدهى ، أخزى لأنـه يحضره الأولـون والآخـرون ، فيعلن على رؤوس الأشهاد ، وأدهى لأنـه نـار جهنم السرمدية غير المنقطعة ، فتعست عاد وقبلها قوم نوح وبعدها ثمود ، وكل من كفر وكل من عصى ربه سينال جزاءه إلّا من تاب وآمن وعمل صالحاً .

ولذا ضرب لنا مهلك البغاة المثل بهم فقال :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾[1].

---

(١) سورة الفجر : ٦ ـ ٨ .

وهذا سؤال من العزيز القدير يفيد التأكيد ، كقوله جل وعلا : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾[1] وقد سبق الحديث عن (إرم ذات العماد) في أول الفصل ، وهنا يخبر الصادق الحق بأن هذه المدينة أو القبيلة لم يخلق الله مثلها في البلاد ، أي في الأرض ، وهنا يعلم أحد أمرين : أما أن يكون الفراعنة الذين بنوا الأهرامات جاءوا بعد عاد ، وهو قول ناقشه بعض المؤرخين ، أو أن عاداً أعظم الأمم جميعاً وأقواها ، وقد توصل مؤلف هذا الكتاب إلى أن عاداً وثمود وأهل الأهرام ، كانوا في عصور متقاربة ، وأن عاداً أقدمهم ، وأن أهل البتراء آخر الأمم القوية .

العذاب بعد النذر :

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[2] .

وهذه عاد كذبت بالنذر ، فصبحها العذاب الأليم ، جحدت أنعم الله ، وتكبرت على كلمة لا إله إلاّ الله ، فما كانت معجزة في الأرض ، وما كانت في مكمن ينجيها من الجزاء الأوفى ، يقول المولى :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ

---

(١) سورة الفيل : ١ .

(٢) سورة الإسراء : ١٥ .

مُنقَعِرٍ ۞ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[1].

نعم يا عباد الله ، نعم يا أهل هذا القرن ، يا من أطلق الله عليكم النعم ، وأركبكم الريح كالطير في السماء ، وأقطعكم الله المهامه والبيد في مراكب كالسراب ، تصبح في مكة وتمسي في عمّان أو دمشق ! .

إن هذا لهو البلاء المبين، أيها المسلمون! أيها المؤمنون! هذه أجسام عاد الضخام أمامكم تتهاوى ، كنخل يلقى على الأرض تظهر قعوره (أعجازه) بعد أن سقطت رؤوسه على الأرض . إنها صورة صادقة لعمل المقتدر ، فكيف كان عذاب الله في ذلك اليوم النحس ؟ بل السبعة الأيام ! وهذا القرآن بين يديكم ميسر لتتذكروا ﴿ **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرْ** ﴾ ؟ إنها العبرة ! إنها العظة ، فهل من متعظ ؟ فما بال القوم اليوم أخذوا يرفلون في النعم بلا حساب ولا وازع من ضمير ، طلباً للذائذ والمتع ، فإذا لم يمتع الحلال اتخذوا طريقهم إلى الحرام ، فشاع في بيوت الكثيرين منا المنكر ، وهرَّبنا المخدرات والمسكرات ، وأشرطة الفيديو ذات الصور المشينة والدعارة المعفنة ، نتهاداها بلا حياء ولا وازع من ضمير ، حتى الحديث القائل : (إذا بليتم فاستتروا) لم يسعنا ، فهذه متع يجب أن يشاركنا فيها الأخوان والأحباب ، أخوان السوء ، والأحباب الأعداء يوم القيامة : ﴿ **الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** ﴾[2] فيا أخوة الإيمان ، يا أخوة الإسلام ، يا أخوة الحياء

---

(1) سورة القمر : ١٨ ـ ٢٢ .

(2) سورة الزخرف : ٦٧ .

والشيم ، الدراك الدراك ، قبل السفرة الأخيرة ، قبل النزول إلى باطن الأرض ، حين لا يذهب معنا إلاّ شيء واحد ، هو العمل ، فأما صديق خير وأنيس محبب ، أو رفيق سوء وصاحب مبغض ، وإن باب التوبة مفتوح ، وإن الله يتقبلها ما لم تقعقع ، **﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾**[1] .

حينئذ فقط يقفل باب التوبة ، بل تقفل كل الأبواب ، وتبدأ التصفية ، تصفية الحساب ، فأما باليمين وأما بالشمال . أسأل الله لي ولكم حسن الخاتمة ، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائه .

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2] .

ونحن أيضاً كهؤلاء ، أتتنا رسلنا بالبينات ، ونشهد أنهم بلغوا رسالات ربهم ، وأن نبينا أتانا بكتاب مبين حكيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لو بحثنا عن عقال الجمل لوجدناه فيه ، حوى الحلال كل الحلال ، وبين الحرام كل الحرام ، فمن ضل بعده فما له من هاد.

وقد تبين لنا من آثار الأمم المبادة المُنذَرة العاصية الكافرة ،

---

(١) سورة القيامة : ٢٦ ـ ٣٠ .

(٢) سورة التوبة : ٧٠ .

وبلغنا نبينا ما حل بهم وحذرنا من سخط الله وغضبه ، فاسمع قول أحسن القائلين :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ۞ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴾(١) .

يقول أحسن القائلين : انظروا إلى مساكنهم خاوية كأن لم تأنس بالأمس ، مع أنها كانت عامرة مأهولة بالأغنياء والمرفهين ، فلما عصوا خالقهم الذي مكّن لهم في هذه الأرض وهيّأ لهم تلك المساكن والثروات والبنين والخدم والحشم ، زيّن لهم الشيطان ما هم فيه ، وأوحى إليهم أن السبيل القويم هو غير ما يدعوهم إليه رسلهم ، ويظهر من سياق الآية أنهم كانوا يعرفون الحق ، ولكن بسبب كبريائهم وترفّعهم عن الناس أعطوا الشيطان الفرصة ليزيّن لهم هذه الأعمال مما حرفهم عن الطريق المستقيم ، الذي تدعو إليه الرسل ، وهو ما قال رسول الله ﷺ : (قل آمنت بالله ثم استقم)(٢) .

أما قارون فله بحث لاحق ، ولم أر ضرورة لقصة فرعون وهامان ، فهي من الشهرة بحيث يعرفها الأميون والعامة ولله في خلقه تدبير حكيم ، نوّع لهم الأرض التي يمشون عليها ، وخالف بين صورهم وأجسامهم ، فإذا هو ينوّع حتى العذاب ، فيعذب من يشاء بما يشاء لا معقب لحكمه .

---

(١) سورة العنكبوت : ٣٨ ـ ٣٩ .

(٢) رواه مسلم وابن حنبل .

فأرسل على عاد المحل وتتابع السنين ، فجأروا بالشكوى إليه يريدون الغيث ، ولكن متى ؟ بعد أن أيأسوه منهم ، وقالوا لنبيهم : آتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . فأراد الله جل جلاله أن يفرحهم وهم يتعذبون ، أي أن يستبشروا بالعذاب ظناً منهم أنه الغيث الذي طلبوا ، ولو كان غيثاً ما زادهم إلّا كفراناً وعلواً في الأرض ، فانظر كيف عذبهم وهم يستبشرون :

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۞ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾(١).

أرسل عليهم الريح التي لا مطر فيها (عقيم) فلما رأوها قالوا : هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به فدمرت الريح ما بقي من خضرة في الأرض ، وقتلت ما بقي من ماشية ، فأهلكت الزرع والنسل ، فجعلت كل شيء حطاماً رميماً ، والرميم : هو ما يبس من النبات ثم وطيء بالأرجل حتى ينسحق سحقاً ، فهذا هو الرميم ، لم يعد ممكناً جمعه والاستفادة منه ، بل اختلط بالأرض وعدمت نفعته .

وما هذا عن الأمم الموجودة اليوم ببعيد ، وكم رأينا أمة سادرة في غيها ، لاهية عن عبادة ربها ، غير شاكرة على نعمه ، نامت على أنغام الموسيقى ، وصدح المغنيات ، وقعقعة كؤوس الخمر ، ولكنها استيقظت مبكرة على غير عادة المترفين ، ما الذي أيقظها يا ترى ؟! إنه العذاب ، فهذه استيقظت على زلزال هدم المساكن وقتل

---

(١) سورة الذاريات : ٤١ ـ ٤٢ .

الذرية ، وأفنى الماشية ، أو قصف المدافع وأزيز الطائرات ، وقد احتل البلد ، وها هم أهله يركضون إلى كل وجهة يتأملون فيها النجاة (لا تركضوا اليوم ، فقد قُضي الأمر وما أنتم بمعجزين) .

فهؤلاء قد أنذرهم العلماء منهم والمتنورون من الأمة ، ولكنهم أصموا آذانهم ، ديدن من كان قبلهم (حذو القذة بالقذة)[1] كعاد حين أنذرهم أخوهم هود فلم يستجيبوا فدمروا تدميراً ، وأوصانا الله أن نذكر ذلك ولا ننساه ، فقال :

﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[2].

يا محمد ، والخطاب لكل الأمة ، أذكر دعوة هود حيث كان وقومه ينزلون الأحقاف[3] ، فدعاهم ، ولأي شيء دعاهم ؟! قال لهم : لا تعبدوا إلّا الله وحده ، وذروا ما سواه كائناً ما كان ، فلا نافع إلّا الله ولا ضار إلّا هو ، وإن لم تفعلوا فإني أخاف عليكم عذاباً أليماً عظيماً ، يرسله الله عليكم لقاء كفركم وعبادة من لا يخلُق بل يُخْلَق . فما كان جواب قومه؟!

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ

---

(١) الحديث : (لتتبعنّ سنن من كان قبلكم حذوا القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتم فيه) رواه ابن ماجه وأحمد .
(٢) سورة الأحقاف : ٢١ .
(٣) تقدم الحديث عن الأحقاف في أول هذا البحث .

ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾(١).

جئت لترينا أن آلهتنا أفكاً وباطلاً ؟ فأين ما تعد به ؟ آت به إن كنت صادقاً.

هذا قول قوم هود ، ولكن الأمم اليوم ، وخاصة الإسلامية ، كثيراً منهم يعمل الموبقات وهو يعلم أنها محرمة ، وشتان بين من يعلم ومن لا يعلم ، بين من يأتي الإثم وهو موقن أنه إثم وبين من يأتي الأثم وهو لا يعتقد أنه إثم ، فأي الطائفتين أحق بالعذاب .

قال هود : ما كنت أعلم الغيب وما أنا إلّا بشر منكم ، أرسلت لأبلغكم ما أمر ربكم ، ولكنكم قوم قد أعماكم الجهل وأصم آذانكم ، فانتظروا .

وجاء ما كان يحذرهم منه نبيهم ، ريح صرصر عاتية ، ترى أعمدتها كالسحب الثقال التي يستبشر بها الفلاح والراعي إذا أقبلت ، وهكذا كانت عاد ، علا وجوهها البشر فاسمع الخبر :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾(٢).

لما رأته عاد قد تفعّم الأودية ظنوه مطراً ستسيل منه هذه الأودية

(١) سورة الأحقاف : ٢٢ و٢٣ .

(٢) سورة الأحقاف : ٢٤ و ٢٥ .

فيزرعون ويرعون أنعامهم ، وقالوا : يا بشرى ، إنه عارض الغيث وإنه استقبل الأودية ، أي أخذ الأودية من أسفلها قابلاً إلى أعلاها ، وهـو في البادية أفضل أنواع الغيث ، يسيل منه كل شعب وواد .

ولكن الله خيب آمال الكافرين ، فرد عليهم بأنه ما استعجلتم به ، إنها الريح العاصف ، وهكذا أصبحت عاد ولم ير إلاّ مساكنها ، بل حتى مساكنها لم يعد لها وجود ، فدمر الله ذكرها وذكراها ، فهل من معتبر ؟! ويؤكد القادر المقتدر أن هذا هو جزاء كل مجرم يعيث في الأرض فساداً ، ولا يراعي حدود الله ، ولا ينشر الحق والعدل في أرض الله التي استخلفه فيها .

فهل فاجأ هذا العذاب عاد ؟ فأعجلهم قبل أن يتمكنوا في الأرض ويقلّبوا وجوه الأمر ليتضح لهم طريق الحق وطريق الباطل ؟! كلا ، فاسمع ما يقول من قوله أصدق وأعدل :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1] .

يقول تبارك وتعالى : لقد مكناهم في الأرض وأعطيناهم من الأموال والأولاد والنعيم المقيم ، وجعلنا لهم الأجسام الفارهة ، والسمع والأبصار ، والأفئدة ، فما استفادوا منها حين جاءهم العذاب الأليم ، لم تغن عنهم أسماعهم فيهتدون ، ولا أبصارهم ليروا الطريق المثلى ، ولا أفئدتهم ليعقلوا ما يقال لهم ويفكروا فيه ، ذلك بأنهم

---

(١) سورة الأحقاف : ٢٦ .

جحدوا آيات الله التي ليس بين يديهم ولا خلفهم إلاّ ما يدل ويوحي بوجود خالقها ومصورها ، فلما طال جحودهم واستهزاؤهم بما يذكرون به حاق بهم ذلك ، فجعلهم كأمس الدابر ، لا ترى حتى مساكنهم ، محاها الله تحقيراً لشأنهم ، واستغناء عنهم وعن عبادتهم .

جزاء المكذِّبين :

يقص علينا الكتاب المنزل من لدن خير المنزِلين ، أن عاداً كذَّبت المرسلين ، أي كذبت ما يرسل به عادة المرسلون ، ذلك أنهم كذبوا رسولهم وسفهوا رأيه ، رغم أنه جاءهم بالبينات وعدّد عليهم نعم الله الظاهرة والباطنة .

فقال الله جل وعلا :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾(١).

لقد قال لهم هود أما تخافون الله يا قوم ، إني لكم نذير بين

---

(١) سورة الشعراء : ١٢٣ ـ ١٣٤ .

يدي عذاب عظيم ، فاقبلوا نصحي وأطيعوا أمري ، وليس لي عليكم من أجر ، فالذي بعثني تكفل بذلك ، إنما أنا رسول رب العالمين الذي مكنكم في الأرض تتبوأون منها ما تشاءون ، تبنون في كل مكان تختارونه ، عبثاً أو تسلية ، آية ، أي علامات على الطرق ونحو ذلك ، والريع هو الطريق الضيق بين جبلين . وتبنون القصور القوية ، التي تريدون أن تخلدوا بها ذكركم ، وتبطشون بطش الجبابرة بلا خوف من الله ولا رادع من سلطان . فاتقوا الله واتبعون ، وتذكروا قدرة الله الذي أنعم عليكم بما أنتم فيه : أنعام وبنين وثروات من جنات وأنهار ، ما كان لكم أن تنبتوا غراسها لولا الله الخالق البارىء المصور .

يا قوم إني أخاف عليكم عذاب أليم عظيم . فما كان جواب قومه ؟

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۞ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ۞ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾(١).

قالوا له : تعظ أم لم تعظ لن نصدقك ، وما هذا إلّا ديدن من سبقنا ، فلا عذاب ولا ما يحزنون ، فبتكذيبهم نبيهم أهلكهم الله ، وإن في ذلك لعبرة لمن اعتبر ، وآية من الآيات الدالة على وجود المنتقم الجبار ، ﴿ وَمَا أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾(٢)

---

(١) سورة الشعراء : ١٣٥ ـ ١٣٩ .
(٢) سورة يوسف : ١٠٣ .

وإنهم ليتّبع آخرهم أولهم ، تلذذاً بالشهوات ، وتفاخراً وتطاولاً بعضهم على بعض ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾(١).

القاصمة الكبرى :

فلما تبين أن عاداً لن تؤمن رغم الحجج والإقناع والتذكير المستمر من نبي الله هود عليه السلام ، وأنهم لا يرون دليلاً على ما يقول هود ، وكم قالوا له : إئتنا بما تعدنا ، أرسل الله عليهم قاصمة الظهر ، الحاقة ، التي حقّت عليهم وهم في غيهم يعمهون ، فقال جل من قائل :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَاقَّةُ ۞ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۞ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۞ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۞ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۞ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾(٢).

يقول جل وعلا : هل تدري ـ يا محمد ـ ما الحاقة، التي أحقت العذاب، إنها تكذيب ثمود وعاد بيوم القيامة (القارعة). القارعة التي تقرع الآذان فتصمها، الراجفة التي تجعل القلوب واجفة، والأبصار

---

(١) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

(٢) سورة الحاقة : ١ ـ ٨ .

خاشعة ، وإنه لأمر جلل تتزلزل منه الأرض والجبال ، إذ يعلن مخلوق خلقه الله من ماء مهين، من نطفة أهون على منطفها من جناح بعوضة ، ثم يقول هذا المخلوق ، ما الساعة ؟ ما الحساب ؟ إنكم تقولون ما لا نفهم ولن نصدق ، فهذا جزاء من كذب وتولى ، أهلك الله عاداً بريح لها صرير صاخبة مرجفة تقتلع كل شيء تمر عليه ، وفي كم يوم هذه الريح العاتية المهلكة ؟! في سبع ليال وثمانية أيام ، مستمرة حاسمة سرمداً لا مهلة فيها للطعام والشراب ، ولا السؤال عن الأهل والجيران ، لا هوادة لا مهلة للعتاة الكافرين ، فما هدأت حتى رأيت القوم صرعى كقعور النخل الميت الخرث ، فأين هم هل بقي منهم من أحد ؟!

إن الريح التي أرسلها الله على الأحزاب في المدينة لم تكن - حسب الوصف القرآني - بعتو ريح عاد ، ومع هذا لم يلبث المشركون غير ساعة ، فكفّأت قدورهم وأطفأت نيرانهم وقلّعت خيامهم فانهزموا مع الظلام . فهل هي بعيدة عن الظالمين إلى يومنا هذا ؟! كلا ، إن الذي أرسلها لحي باق ، وما هي عن الظالمين ببعيد .

ومن لطيف ما قرأت عن خاتمة عاد الأولى ما كتبه الإمام ابن كثير في آخر قصة هود ، في كتابه قصص الأنبياء ، وحتى لا أضيّع عليك أسلوب الرجل وحبكة الموضوع ، نقلته لك بحذافيره . قال[1] : وقد ذكر المفسرون وغيرهم ها هنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن إسحق بن يسار قال : فلما أبوا إلا الكفر بالله عزّ وجل ، أمسك عنهم القطر ثلاث سنين ، حتى جهدهم ذلك ، قال : وكان

---

(١) قصص الأنبياء : ٩٩ - ١٠١ . دار الفكر ، عمان .

الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته . وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان ، وبه العماليق مقيمون ، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال إنه معاوية بن بكر ، وكانت أُمه من قوم عاد واسمها جلهدة ابنة الخيبري . قال : فبعثت عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستسقوا لهم عند الحرم ، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة ، فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً ، يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان ، قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه في شهر . فلما طال مقامهم عنده ، وأخذته شفقة على قومه ، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف ، عمل شعراً يعرض لهم فيه بالانصراف ، وأمر القينتين أن تغنيهم به ، فقال :

ألا يا قيل ويحك قسم فهينم
لعل الله يمنحنا غماما
فيسقي أرض عاد إن عاداً
قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو
به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخيرٍ
فقد أمست نساؤهم أيامى
وأن الوحش يأتيهم جهاراً
ولا يخشى لعادي سهاما
وأنتم ها هنا فيما اشتهيتم
نهاركم وليلكم تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم
ولا لقوا التحية والسلاما

قال : فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له ، فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم ، فدعا داعيهم وهو قيل بن عنز فأنشأ الله سحابات ثلاثاً : بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه منادٍ من السماء : اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب ، فقال : اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء، فناداه منادٍ: اخترت رماداً رمدداً، لا تبقي من عادٍ أحداً لا والداً يترك ولا ولداً إلا جعلته همداً إلا بني اللوذية الهمدا . قال : وهم بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة ، فلم يصبهم ما أصاب قومهم . قال : ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة .

قال وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد ، حتى تخرج عليهم من وادٍ يقال له المغيث ، فلما رأوها استبشروا ، وقالوا هذا عارض ممطرنا ، فيقول تعالى : ﴿ **بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيم * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها** ﴾[1] أي تهلك كل شيء أمرت به .

فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها « مهد » ، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت . فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مهد؟ قالت: رأيت ريحاً فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها ، فسخرها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً ، والحسوم الدائمة ، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك .

قال : واعتزل هود عليه السلام ـ فيما ذكر لي ـ في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود ، وتلذ الأنفس ، وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض ،

---

(١) سورة الأحقاف : ٢٤ ـ ٢٥ .

وتدمغهم بالحجارة . وذكر تمام القصة .

وقد روى الإمام أحمد حديثاً في مسنده يشبه هذه القصة فقال : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي ، حدثنا عاصم بن أبي النجود ، عن أبي وائل ، عن الحارث ـ وهو ابن حسان ـ ويقال ابن زيد البكري ، قال : خرجت أشكو العلاء ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة ، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة ، فهل أنت مبلغي إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت المدينة ، فإذا المسجد غاص بأهله ، واذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ ، فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً .

قال : فجلست ، قال فدخل منزله ـ أو قال رحله ـ فاستأذنت عليه فأذن لي ، فدخلت فسلمت فقال : « هل كان بينكم وبين بني تميم شيء » ؟ فقلت : نعم . وكانت لنا الدائرة عليهم ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها ، فسألتني أن أحملها إليك ، وها هي بالباب . فأذن لها فدخلت ، فقلت : يا رسول الله ، ان رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً ، فاجعل الدهناء ، فإنها كانت لنا ، قال : فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يا رسول الله ، فإلى أين يضطر مضطرك ؟ قال : فقلت : إن مثلي ما قال الأول : « معزَى حملت حتفها » حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لي خصماً ، أعوذ باللّه ورسوله أن أكون كوافد عاد ، قال : هيه وما وافد عاد ؟ وهو أعلم بالحديث مني ولكن يستطعمه . قلت : إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له قيل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر ، وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان ، فلما مضى

الشهر خرج إلى جبال تهامة ، فقال : اللهم إنك تعلم أني لم أجىء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه . فمرت به سحابات سود ، فنودي : منها اختر . فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودي منها : خذها رماداً رمدداً ، لا تبقي من عاد أحداً . قال : فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا .

قال أبو وائل : وصدق ، وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد .

وهكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد ، عن زيد بن الحباب به . ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر عن عاصم بن بهدلة ، ومن طريقه رواه ابن ماجه . وهكذا أورد هـذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير وغيره .

وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة ، فإن فيما ذكره ابن اسحاق وغيره ذلك لمكة ، ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليـل ، حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل[1] ، فنزلت جرهم عندهم كما سيأتي ، وعاد الأولى قبل الخليل ، وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره ، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى ، ولا يشبه كلام المتقدمين . وفيه أن في تلك السحابة شرر نار ، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر . وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين : هي الباردة ، والعاتية : الشديد الهبوب .

---

(١) بل هناك روايات : إن الملائكة كانت تطوف بمكان البيت قبل آدم ، وأنهم بنوه قبل بناء إبراهيم . راجع ذلك في كتابي (فضائل مكة وحرمة البيت الحرام) .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾(١) أي كوامل متتابعات . قيل كان أولها الجمعة ، وقيل الأربعاء .

﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾(٢) شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها ، وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس ، كما قال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾(٣) أي في يوم نحس عليهم ، مستمر عذابه عليهم .

﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾(٤) ومن قال إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم ، فقد أخطأ وخالف القرآن ، فإنه قال في الآية الأخرى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾(٥) ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات ، فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤومة ، وهذا لا يقوله أحد ، وإنما المراد في أيام نحسات ، أي عليهم .

وقال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾(٦) أي التي لا تنتج خيراً ، فإن الريح المفردة لا تثير سحاباً ولا تلقح شجراً ، بل هي عقيم لا نتيجة خير لها ، ولهذا قال : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾(٧) أي كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية .

---

(١) و (٢) سورة الحاقة : ٧ .
(٣) سورة القمر : ١٩ .
(٤) سورة القمر : ٢٠ .
(٥) سورة فصلت : ١٦ .
(٦) سورة الذاريات : ٤١ .
(٧) سورة الذاريات : ٤٢ .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال : (نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور) .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[1] فالظاهر أن عاداً هذه هي عاد الأولى ، فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى . ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية ، ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة رضي الله عنها .

وأما قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾[2] فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشىء في الجو كالسَحاب ظَنّوه سحاب مطر ، فإذا هو سحاب عذاب . اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر . قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ﴾[3] أي من العذاب ، ثم فسره بقوله : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4] يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوط ، التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحداً ، بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم ، وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة ، فكما منوا بشدتهم وبقوتهم وقالوا : من أشد منّا قوة ؟ سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة ، وأقدر عليهم ، وهو الريح العقيم .

---

(١) سورة الأحقاف : ٢١ .

(٢) و (٣) و (٤) سورة الأحقاف : ٢٤ .

ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة ، ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقي منهم ، فأرسلها الله عليهم شرراً وناراً ، كما ذكره غير واحد . ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين ، وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار ، وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة ، مع الصيحة التي ذكرها في سورة ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾[1] . والله أعلم .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن يحيى ابن الضريس . حدثنا ابن فضيل عن مسلم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم ، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد ، الريح وما فيها ﴿ **قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا** ﴾[2] فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة) .

وقد رواه الطبراني عن عبدان بن أحمد ، عن إسماعيل بن زكريا الكوفي ، عن أبي مالك ، عن مسلم الملائي ، عن مجاهد وسعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (ما فتح الله على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ، ثم أرسلت عليهم البدو إلى الحضر ، فلما رآها أهل الحضر قالوا هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا . وكان أهل البوادي فيها ، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا) .

قال : عتت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب .

---

(١) المؤمنون : ١ .　　(٢) الأحقاف : ٢٤ .

قلت : وقال غيره : خرجت بغير حساب .

والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظر . ثم اختلف فيه على مسلم الملائي ، وفيه نوع اضطراب والله أعلم .

وظاهر الآية أنهم رأوا عارضاً والمفهوم منه لغة : السحاب ، كما دلّ عليه حديث الحارث بن حسان البكري ، إن جعلناه مفسراً لهذه القصة .

وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه حيث قال : حدثنا أبو بكر الطاهر ، حدثنا ابن وهب قال : سمعت ابن جريج حدثنا عن عطاء بن أبي رباح ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : (اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به) قالت : « وإذا غَيَّمت السماء تغير لونه ، وخرج ودخل ، وأقبل وأدبر . فإذا أمطرت سرى عنه » . فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال : (لعله يا عائشة كما قال قوم عاد : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا** ﴾(١)) .

رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، من حديث ابن جريج .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف ، أنبأنا عبد الله بن وهب ، أنبأنا عمرو ـ وهو ابن الحارث ـ أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار ، عن عائشة أنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى منه لهواته ، إنما كان يتبسم، وقالت: كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف ذلك في وجهه، قالت : يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه

---

(١) الأحقاف : ٢٤ .

المطر ، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ؟ فقال : (يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ! قد عذب قوم نوح بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا) . فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً . فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية وتكون بقية السياقات في القرآن خبراً عن عاد الأولى ، والله أعلم بالصواب .

وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف ، وأخرجه البخاري وأبو داود من حديث ابن وهب .

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بارد اليمن[1] ، وذكر آخرون أنه بدمشق ، وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام . والله أعلم .

---

(١) كذا في الأصل ، وهناك مزار قرب الشحر بحضرموت ، يزعم الحضارمة أنه قبر نبي الله هود .

موجز قصة هود ودعوته قومه

قال النسابون : هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح . وقالوا : هود بن عابر بن شالخ . . الخ .

وقالوا : هود بن عبد الله بن رباح الجارود بن عاد ، وتقدم نسب عاد . وهذا قول الطبري . وكان من قبيلة يقال لها : عاد بن عوص .

وأقول : كل هذا العد لا يعتد به ، فالثابت أنه من عاد ، لأن الله قال أخوهم هود ، ولكنه من عاد بعد أن أصبحت قبيلة ذات عدد وملك وعتو وبطش ، وهذا لا يكون لأحد قبل مضي مئات السنين ، والمشاهد اليوم أن قرية متوسطة في جزيرة العرب يدعون بني فلان ، وأنهم يَعدُّون إلى سبعة أو ثمانية دون فلان[1]، وهذا لم يظهر من نسب هود ، إلاّ أن تكون عاد ذات الشوكة في أمم انضمت إليها ، فغلب عليها اسم عاد ، وهذا غير محتمل في مثل تلك العهود حيث قلة الناس واتساع الأرض . ويقول ابن كثير ـ قصص الأنبياء ـ: وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف وهي حبال رمل : بين اليمن وعُمَان وحضرموت . ثم يقول وهم عاد الأولى .

---

(١) أي يقولون : فلان بن فلان . . الخ إلى سبعة جدود أو نحوها .

وفي الحديث[1] عن أبي ذر : منهم أربعة ـ أي الأنبياء ـ من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك يا أبا ذر . ولقد نصح هود عليه السلام لقومه وجادلهم بالحسنى ، وبلغ عن ربه بلاغ الرسل الصادقين ، ولكن عاداً كذبت ، وقد مر معك ما فيه غناء إن شاء الله ، من الآيات التي قصّ الله بها علينا قصة هود مع قومه ، فيها عبرة وفيها للدعاة تأسي ، وأنه ليس كل منصوح مصدِّق ، ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** ﴾[2] .

ولما أراد الله هلاك عاد نَجَّى هوداً والذين آمنوا معه ، وقطع دابر عاد ، فبعداً لعاد ، وبعداً لمن سار سيرتها بعدها ، وبعداً لمن يضارع اليوم فعله فعلها ، أو يقرب من فعلها .

فلما رأى هود ، عليه السلام ، العارض الذي استبشرت به عاد عرف العذاب ، فاعتزل هو ومن معه ، فنجا هو والمؤمنون ، وما أهلك الله أمة بعذاب إلاّ نجّى مؤمنيها الساطعين بالحق المنذرين بالعذاب ، وأن الله جعل العلماء ورثة الأنبياء . وقد خاضت الأمم اليوم فيما خاض فيه من كان قبلهم ، بل خاض بعضهم في أسوأ مما خاض من سبقهم ، فأتوا الموبقات وهم يعلمون ، وحللوا ما يعلمون حرامه ، وحرموا ما يعلمون حلاله ، فأرسل الله عليهم الحروب والمجاعات والزلازل والفتن ، وما من معتبر ولا مرعوي ، بل تسابق وتغالب في كل ما يلذ ويطيب ، رتعت الرعاة فرتعت الرعية ، وتخلى كثير من العلماء عن التجرد فصار عالمان يفتيان في مسألة واحدة فتويين متضادتين ، تضاد الحق والباطل ، بتأثير النفوذ والهوى ، نسأل الله العافية والسلامة .

---

(١) صحيح ابن حبان .

(٢) سورة القصص : ٥٦ .

انتقال هود عليه السلام ووفاته :

وانتقل هود ـ فيما يبدو ـ عن أرض العذاب ، فاتجه جنوباً إلى مهرة وظفار ، حيث عاش زمناً لا نعلمه ثم توفي هناك . ولأخينا هادون بن أحمد العطاس بحث نشره ، سماه (عاد في التأريخ) حقق فيه موطن نبي الله هود بعد العذاب ، وحدد مكان قبره الذي لا يزال يعرف إلى يوم الناس هذا . ولفائدة هذا البحث اجتزأت منه ملخصاً لحياة هود بعد العذاب ، ومكان مدفنه ، يقول هادون :

١ ـ « من أشهر وأبرز المآثر القديمة بحضرموت قبر النبي هود عليه السلام الواقع قريباً من وادي برهوت شرقي قرية (فغمة) نحو عشرة أميال على سفح الجبل في الشعب المعروف بشعب هود وكونه بحضرموت هو المنقول المتواتر خلفاً عن سلف . وهناك أقوال أخرى بأنه في الشام وغيرها ، وعلى كل حال فلا يوجد قبر لنبي من الأنبياء غير نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يبلغ في صحة تعيين ناحية قبره ما بلغ قبر النبي هود عليه السلام ، فقد كاد أن يطبق المؤرخون على أنه بحضرموت ، وفي القرآن الكريم ما يدل على ذلك ، إذ قال تعالى : ﴿ **وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ** ﴾[١] وموضع الأحقاف لا خلاف فيه شرقي حضرموت ، وقد كان وادي حضرموت قديماً وحديثاً يسمى بوادي الأحقاف وكان معروفاً في عهد الجاهلية وما قبله ، ثم في العهود الإسلامية ، وما زال معروفاً يزار إلى اليوم »[٢] .

ثم قال : « وإنما اعتمدنا ما اعتمدناه من تصحيح أن قبره

---

(١) سورة الأحقاف : ٢١ .

(٢) أي قبر هود .

بحضرموت اعتماداً على ما أطبق عليه المؤرخون والمفسرون وغيرهم من ترجيح كونه بحضرموت ، وهو المقبول عقلاً ، أما كون قبره هو المعروف هذا اليوم فهو المتواتر عند أهل حضرموت ، رواه الأحفاد عن الأجداد » إ . هـ .

٢ ـ أما الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري فقال : « قد مات هود عليه السلام بحضرموت فيما يروي كثير من المؤرخين ، وخاصة من كتب عن حضرموت ، وأصبح وجود القبر متواتراً بمحله المعروف ، وكانت تقام سوق سنوية في الجاهلية في شعبان في المنطقة التي بها قبره بشرقي حضرموت قرب بئر برهوت الشهيرة » .

٣ ـ « ويقول أهل حضرموت أن هوداً سكن بلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن بها في شرق بلادهم على نحو مرحلتين من مدينة تريم قرب وادي برهوت »[1] .

٤ ـ « يقع قبر هود عليه السلام بعد قرية (فغمة) تحيط به قبة متواضعة بيضاء ، وعلى مقربة منها تقوم منازل صغيرة » .

٥ ـ « ومن المسلم به بوجه عام أن قبر هود موجود بسفح أحد جبال حضرموت ولا يزال مزاراً إلى وقتنا هذا » .

ومما تقدم يمكن القول بأن قبر هود عليه الصلاة والسلام في حضرموت بسفح جبل ، وهذا الجبل الذي فيه الكهف الذي يضم ضريح الرسول هود ، أشار إليه اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ

---

(١) المرحلة في جزيرة العرب يتحكم فيها وجود المناهل ، فهي تتراوح بين ٢٥ ـ ٥٠ كيلاً .

ومحمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٥٤ هـ والهمداني المتوفى حوالي ٣٣٤ هـ بل إن اليعقوبي وابن حبيب ذكرا محل السوق الذي يقام تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود عليه السلام وأنه في النصف من شعبان .

والبحث التاريخي حول تحديد موضع قبر هود جدير بالاهتمام إلا أنه لم تقدم أدلة تاريخية تنفى أو حتى تقلل من قيمة الأدلة والأقوال التي تؤيد أن ضريح هود عليه السلام في المحل الذي أشار إليه الهمداني وغيره والمعروف موضعه بالتواتر لدى الحضارم .

ولا يزال السوق الذي أشار إليه كل من ابن حبيب والهمداني قبل أكثر من ألف عام يقام إلى يومنا هذا، الأمر الذي يوحي بأن السوق كان ولا يزال يقام تحت الجبل الذي يضم جثمان الرسول هود عليه الصلاة والسلام . إ . هـ .

ثمــــود

إحدى القبائل العربية القديمة ، تشترك مع عاد في النسب ، فتلتقي معها في إرم بن سام .

فهم : بنو ثمود بن جاثر بن إرم ، كانوا سكان وادي الحجر من وادي القرى المشهور في شمال غرب المدينة المنورة ، وكانت لهم قوة تجل عن الـوصف ، إذ نحتوا بيـوتهم في الصخور في داخـل الجبال ، فجعلوا من هذه البيوت المنحوتـة مجالس واسعـة ، لها دكاك وأبواب ، في صنع باهـر بديـع يدل على قـوة خارقـة وعلم بالهندسـة ، وآمال عراض[1] .

وكانوا يزرعون أرض الحجر الخصبة ، فتدر عليهم الغلال ، وتتـوسط أرضهم فلوات واسعة كـانوا يـرعون فيهـا أنعامهم فتنمـو وتتكاثر ، فصاروا أهل ثروة وجاه ، فعصوا ربهم وعبدوا الأصنام ، وظلموا ظلماً كثيراً ، فأرسـل الله لهم نبيه صالحـاً ، من أنفسهم ، يعرف عاداتهم وأعمالهم ووجوه إقناعهم ، فدعاهم إلى الله ، فأبوا وأعرضوا وكذبوا صالحاً ، بل استهزؤوا به وحقّروا أتباعه ، فجاءهم بالآيات ودأب على تذكيرهم بالله ، فزادهم ذلك كفراً وطغياناً حتى

---

(١) انظر عن الحجر ومدائن صالح والأثالث ، وكل تلك الأماكن : كتابي (معجم معالم الحجاز) .

هموا بصالح النبي ليقتلوه ، فأرسل الله عليهم العذاب فأهلكهم ، ونجّى صالحاً والمؤمنين معه .

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ولكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[١] .

أخبارهم في التأريخ :

نسبهم : في مروج الذهب (١/٤٢) : ثمود بن عابر بن إرم . وفي الطبري (١/١١٥) ثمود بن جاثر .. الخ ، وما تقدم . ثمود ابن جاثر (سبائك الذهب) .

والذي يتردد كثيراً في تلك القبائل (عابر) فلعله الصواب . وفي تفسير ابن كثير : (عاثر) ولعله تصحيف عابر . وجاء في معجم البلدان[٢] . . . والحِجر : اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام ، قال الاصطخري : الحجر قرية صغيرة قليلة السكان ، وهو من وادي القرى على يوم بين جبال ، وبها كانت منازل ثمود ، ورأيتها بيوتاً مثل بيوتنا في أضعاف جبال ، وتسمى تلك الجبال الأثالث ، وهي إذا رآها الرائي من بعد ظنها متصلة فإذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها . . إلى أن يقول : وبها بئر ثمود التي قال الله فيها وفي الناقة : ﴿ قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾[٣] .

فعلى عِظَم ما أنزل الله في ثمود من قرآن عنفها فيه ، وقص من أخبارها ، تجد أخبارها قليلة في كتب التأريخ ، ومن توسع في أخبارها كان مصدره القرآن ، وهو ما سيلحق بعد هذا .

---

(١) سورة آل عمران : ١١٧ .

(٢) مادة الحجر .

(٣) سورة الشعراء : ١٥٥ .

أسباب هلاك ثمود :

لقد مكن الله لثمود ، وجعلها خليفة في الأرض بعد عاد ، وأعطاها من أسباب القوة والغنى ما كان يستحق الشكر لا الكفر ، غير أن ثمود كفرت وكذبت الرسل ، كما قدمنا ، فخاطبها الله بواسطة نبيه صالح ، وتوعدهم وبين لهم سبل الحق ، فلم يغن عنهم جمعهم ولا أموالهم ، فأهلكهم بالصيحة .

يقول القادر العادل :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(١).

---

(١) سورة الشعراء : ١٤١ ـ ١٥٩ .

أرأيت أخي المسلم ؟! إن الله ليس بظلام للعبيد ، ولا يعذب قرية إلّا وقد خلا فيها نذير .

يقول العزيز المتعال في هذه الآيات : إن ثمود بعد أن عصوا ربهم وعبدوا الأصنام أرسل لهم مرسلين ، فكذبوا المرسلين ، فجمعوا ظلماً إلى باطل ، الظلم هو الشرك بالله ، والباطل والكفر البواح أن تكذب نبياً مرسلاً بحجة أنك تشك في أقواله رغم ما يأتي به من آيات ، ويقول لهم أخوهم : اتقوا الله واعبدوه ، أطيعوني فيما أمركم تفلحوا ، ثم يؤكد لهم أنه رسول أمين لا يكذب على الله ولا عليهم إنما هو ناصح لقومه مبلغ رسالة ربه ، لا يريد منهم أجراً ، إنما يريد إنقاذهم من الشرك ، ثم يعدد عليهم نعم الله : أمن ، جنات وعيون ، زروع ونخل ذات ثمر طيب مهضوم ، وقوة ينحتون بها الجبال في جذل وحبور وإحساس بالنعم. ويحذرهم صالح وهو الخبير بحيل ومكائد قومه ، يحذرهم من سماع المسرفين المرجفين المنافقين ، الذين دأبوا على الفساد في الأرض ، فلا تقر لهم عين على رؤية إصلاح أو مصلح .

فماذا كان جواب ثمود ؟! قالوا : أنت مسحور مريض ، وما نعلم إلّا أنك بشر لا تزيد عنا بمزية لتكون لك قوامة وحكم ، فإذا كنت صادقاً فآت بآية نراها ونلمسها تكون مدعاة لتصديقك .

ويرفع صالح يده إلى الله يطلب إنزال ما يجعلهم يصدقون أنه نبي غير كاذب ، وجاءت الاستجابة من رب العالمين : هذه ناقة ليست كبقية الإبل ، إنما هي آية من آيات الله أحكم الله بها عليهم الحجة .

وجاء في تفسير ابن كثير (٢/٢٢٨) : إن ثمود طلبوا ـ تعجيزاً

وتكذيباً ـ من صالح أن يخرج لهم من صخرة (الكاتبة) وهي صخرة معروفة لديهم ناقة عشراء ، أي لقحة على وشك الولادة ، فأخذ صالح عليهم المواثيق إن أخرجها الله لهم ليؤمنن به وليعبدن الله وحده ، فأعطوه ما طلب ، فدعا ربه ، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبرة[1] ، يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا ، فآمن رئيسهم : جندع بن عمرو ومن كان معه ، غير أن الفتنة وقعت بين أشراف ثمود فمنع بعضهم بعضاً عن اتباع صالح .

فقال لهم صالح : هذه الناقة ساقها الله لكم آية لها نصف الماء ولكم نصفه ، فإن مسستموها بسوء سخطكم الله ، وكان يوم شربها يعوضهم الله بلبنها فيحلبون ما شاءوا ، فإذا غبت[2] وردوا الماء فاستقوا ليومهم واليوم المقبل. وهذا الاشتراط في الشرب لأنها آية امتحاناً لهم أيؤمنون أم يكفرون ، وإلاّ فإن المعروف أن ماء البئر يسقي مئات من الإبل مع أهلها فلا يُغب عن الماء ، وعادة الإبل أن تشرب ربعاً أو خمساً، وليس شربها غباً، إنما هو الاختبار، فلم يصمد بنو ثمود للاختبار ، فعدا عدو الله أشقى ثمود ، ويقال : أحيمر ثمود واسمه قدار بن سالف ، فعقر الناقة . فأصبح القوم في ندم شديد لعلمهم أنه ما أخرجها من الصخر إلاّ قادر على الانتقام لها ، فجاءهم العذاب بعد ثلاثة أيام .

ونعود إلى الموروث ، وكثير منه يتناقله الخلف عن السلف ، فنجد أهل تلك الناحية يعرفون البئر ويستقون منها ، ويسمونها بئر

---

(١) جوفاء : عريضة ضخمة ، وبرة : كثيرة الوبر ، وهو شعر الإبل ، وهذه في عرف العرب صفات خيار الإبل .

(٢) اليوم التي لا تشرب فيه ، والغب : يوم بعد يوم .

الناقة ، ويقولون : إن الصخرة معروفة قريبة من البئر، وإن حوار ناقة صالح لما عقرت هرب فانصدعت الصخرة فدخل فيها ، وإن الإبل اليوم إذا مرت بتلك الصخرة تتلافت نحوها ، وهي بزعمهم تسمع حنين الحوار ، والله أعلم .

وليس بعيداً من ذلك مكان اسمه (المرجم)[١] يزعمون أن ثمود عندما نزل بهم العذاب ، ونجّى الله صالحاً والذين معه ، سأل بعض القوم عن طريق صالح وأسرعوا فيه ، فأمطر الله عليهم حجارة رجمهم بها فهلكوا .

وفي الحديث المروي في الصحيحين أن رسول الله مر بأرض ثمود في غزوة تبوك ، ورأى القوم قد استقوا من تلك الآبار ، فنهاهم وأمرهم أن يهرقوه في الأرض ويعلفوا الجمال ما عجنوا من عجين بهذا الماء ، وبيَّن ﷺ انها مسخوطة لا يجوز أخذ شيء منها .

وقبل سنين نزلت قبيلة من قبائل عنزة الحجر فحفروا الآبار وأنشأوا البساتين ، فأظهرت الأرض غلالاً فائقة ونَعُم الزرع والنخل ما لم ينعم في أرض أخرى ، غير أن العلماء في هذه البلاد أجمعوا على أنه لا تجوز زراعة هذه الأرض ولا السكنى فيها ، فرحّل الزراع وعوِّض عليهم فيما خسروا ، وعادت أرض ثمود خراباً قفراً .

والعزيز الحكيم الرحيم يقص علينا هذا وأمثاله في كتابه العظيم لنعتبر ونتعظ ، ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾[٢] .

---

(١) معجم معالم الحجاز ، المادة : رجم

(٢) سورة فصلت : ٤٦ .

ويعيد الله قصة ثمود تكراراً لترسخ في الأذهان ، وليعتبر أولوا الألباب ، فيقول :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۞ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۞ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾(١).

وهكذا يكرر صالح على قومه أنه لا إله إلا الله ، ما لهم من إله غيره ، ثم يفحمهم بقوله : قد جاءتكم بينة من ربكم . فهذه الناقة التي رأيتموها تخرج من صخرة ثم لمستموها بأيدكم وحلبتموها ،

---

(١) سورة الأعراف : ٧٣ ـ ٧٩ .

هل رأيتم قبلها صخرة تلد ناقة ؟! فإذا عاندتم نقول لكم : هل من شركائكم من يفعـل ذلك ؟! ولكن القوم بآيات الله يجحدون .

ثم يذكرهم ببني عمهم (عاد) الذين يعلمون كيف هلكوا ، فيقول : جعلكم الله الخلفاء في الأرض من بعدهم ، ومكن لكم ما لم يمكن لغيركم ، قوة تنحتون بها الصخـر فتتخذون منـه بيوتـاً ، وتبنـون في السهول قصـوراً ، فتذكـروا هذه النعم وتـوبـوا إليـه ، وأصلحوا ولا تفسدوا ، ولكن ثمود استكبرت كما استكبرت عاد وقوم نوح من قبل ، فصاروا يسألون المؤمنين من قوم صالح وهو سؤال سخرية واستهـزاء ، حتى إذا أقر المؤمنـون بنبوة صـالح فـاجأوهم قائلين : أما نحن فإنا كافرون بالذي آمنتم به ! . وزادوا عتواً وضلالاً فعقروا ناقة الله ، الآية الباهرة الظاهرة الملموسة باليد ، فأرسل الله عليهم رجفة شديدة ، وتنحى صالح عنهم فنجا والمؤمنون ، فسبحان الله عما يصفون .

فيا قومنـا إن هذه الأنـواع من العذاب : الـريح ، الصيحـة ، الرجفة ، الطاغية ، كل هذه ليست بعيـدة عن الذين يفسـدون في الأرض ويعيشـون مستكبرين ، فـإذا نُصِحوا أخـذتهم العـزة بـالإثم فبشرهم بعاقبة المسرفين .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۞ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۞

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ۞ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾(١).

يقول صالح : إن الله أعمركم الأرض تعمرون ما تشاءون منها، ومن حق المنعم أن يعبد ، وأن يستغفر ويتاب إليه، ويعدهم نبي الله إن الله قريب مجيب يقبل توبة عبده ، غير أن الذين استكبروا ردوا بخيبة أمل منهم وقد خابوا ، قالوا : قد كنا نرى فيك الخير حتى جئت بهذا الأمر الغريب ، وكأنهم ما سمعوا بعاد وقوم نوح ، وكأنا اليوم لم نسمع بشيء من ذلك ، وقالوا لصالح : إنهم يشكون في أمره ، تماماً كما نقول اليوم لمن ينادون ويقولون : « إنه لا يُصلِح آخر هذه الأمة إلّا ما أصلح أولها » . فنصيح بهم : متطرفين ، أصوليين ، حتى تجرأ أحدهم فقال : إنهم يدعون إلى الجهاد ، وهو من مخلفات العهود السابقة. ويعيد نبيهم إعادة الرجاء والاسماع ، فيقول : هذه رحمة من ربي جعلني نبياً أخبركم عنه الحق وهذه ناقة ليست كبقية النياق انظروا وتفكروا ، ولكن القوم في لجاجة الكفر يعمهون ، فحق عليهم العذاب ، فلم تبك عليهم السماء ولا الأرض، فاصبحوا أحاديث وأمثالاً ، ألا بعداً لثمود وبعداً بعد بعدها لثمود اليوم ، وفراعنة هذه الأمة الذين يحكمون بغير ما انزل الله ويحللون ما حرم الله ، ويحرمون ما حلل ، كم سلط على بعضهم من عذاب وأمهل بعضاً ، يتقاتلون فيقتل بعضهم بعضاً ويظنون أنه

---

(١) سورة هود : ٦١ ـ ٦٤ .

من أمور المنافسة على الدنيا ، بل هـو عذاب الله يسلط على من يحيد عن السراط ، فبعداً له كما بعدت ثمود .

يا قوم ألم تسمعوا كلام ربكم النازل إليكم من السماء على قلب أصدق رجل ؟! اسمعوه :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ۞ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۞ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۞ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾(١).

ينبه الله سبحانه وتعالى إلى تذكر ما جرى لعـاد وثمود ، ثم يقول زيادة في التأكيد والإيضاح : قد شاهدتم مساكنهم خاوية خالية من أنيسها ، لأن الشيطان زين لهم ما كانوا يعملون من شرك وكفر بالله ، وعبادة الأصنـام وعمل الفـواحش ، وعدم إطاعة اشـرارهم خيارهم ، كما فعـل قدار وزمـرته ، فصـدهم ذلك عن سبيـل الله المستقيم ، وكانوا يعرفون الحق ، ومنهم من اتبعه ، ولكن السواد

---

(١) سورة العنكبوت : ٣٨ ـ ٤١ .

الأعظم استكبروا ، وتاهوا على أنبيائهم بما أعطاهم الله من مال وبنين ، وزروع وصحة في الأبدان ، فسفهوا احلام الرسل ، واحتقروا اتباعهم ، وان كثيراً من مسلمي اليوم ما هم عن ذلك ببعيد .

ويضرب الله مثلاً بقارون وفرعون وهامان ، وما كانوا يعلون في الأرض ، ولا يرون فوقهم من أحد ، وقد أحاط بهم ما كانوا يمكرون .

وبعد هذا التعديد يخبرنا القدير أن كلاً أُخِذ بذنبه ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ﴾(١) فاهلك بعضهم بالحاصب من السماء ، وبعضهم بالصيحة ، ومنهم من خُسِفَ به ، ومنهم من أُغرِق ، بظلمهم انفسهم ، وما يظلم ربك أحداً .

ثم يأتي الواحد الأحد بمثل الهوان للمشركين والعصاة والمتجبرين ، فيقول : إن من اتخذ سنداً دون الله يعبده أو يحتمي به من سخط الله ، مثله مثل العنكبوت وبيتها ! اتخذته لتسكنه وهو من هباء واهٍ يمكن هدمه بشعرة ، أو نفخة من فمٍ ، فليتهم كانوا يعلمون أن كل ما يُرجى مع الله أو دونه لا يزيد قوة وحماية عن هذاك النسيج الذي تحوكه العنكبوت لتحتمي به ، ضعف المحتمي والمحتَمى به .

الذين كفروا يكذبون :

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۞ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۞ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۞ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾(٢).

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٤ .
(٢) سورة البروج : ١٧ - ٢٠ .

الذين كفروا يزين لهم الشيطان أعمالهم ، فإذا أُنْذِروا تمسكوا بها ، وحتى يبرّروا تمسكهم ويثبتوا أتباعهم على منحاهم الفاسد ، يكذِبون ويكذِّبون ، يكذِبون على الله بانكار كل صنعه من حساب وبعث ، وجنة ونار ، ويكذِّبون رسله بأنهم ما أرسلوا من عند الله ، وما أدراهم بذلك ؟ ﴿ **إنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ** ﴾(١) ولكن الله محيط بهم ، يعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم .

ولا شك أن الذين أتاهم الله أموالاً وجنوداً من أمم الأرض اليوم فاتخذوا هذا سبيلاً إلى الالحاد في الأرض وقتل الأبرياء الضعفاء ، واستعباد عباد الله المغلوبين ، سيصيبهم ما أصاب قوم نوح وعاد وثمود ، وفرعون وقارون .

العبرة لمن اعتبر :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۞ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۞ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾(٢).

اعتبروا يا أولي الألباب ، ذهبت عاد بجاهها وثروتها وأجسامها ، ولحقت بها ثمود بقوتها ومنحوتاتها وقصورها ، وفرعون وما ملك ومن عبّد، طغوا وأفسدوا فساداً غَيَّر القيم الإلهية ، وحول مجاري العدل ، وجعل الضعيف الفقير عبداً للقوي الغني ، ولكن أين يذهبون ؟ أين الله ؟! إنه كامن لهم راصد ، في مرصاد لا يطال

---

(١) سورة الأنعام : ١١٦ .

(٢) سورة الفجر : ٦ ـ ١٤ .

ولا يخطىء ، إذا قذف جباراً أصاب المفصل ، فجاء سوطه سوط عذاب ، جاء من صاحب المرصاد ، فهل من حصن يحصِّن منه ؟! وهل من واقية تقي منه ؟! نعم ، إذا أردت ذلك فهو بين يديك « قل آمنت بالله ثم استقم »(١) ، استقم على شريعة الله التي شرعها للمؤمنين ، ولا تتلقّفك بُنيّات الطريق وما أكثرها ، وما أسهلها ، وما أكثر من ينادونك إليها ، ولكنها كثرة وسهولة تؤدي إلى صحارٍ قفر كثيرة المزالق والمغارق .

لِمَ كَذَّبَتَ ثمود :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۞ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۞ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ۞ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۞ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴾(٢) .

إذاً ثمود كذبت لطغو فيها ، واستكبار نجده يصيب الأمم المنعمة إلى يومنا هذا ، ولكن هذا الاستكبار كثيراً ما يتحول إلى خوار إذا جرت الرياح بما لا تشتهي السفن ﴿ **إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً** ﴾(٣) ولكن رسول الله أراد أن يقيم عليهم الحجة ، فأخرج الله لهم ناقة تدر الحليب وتلد ، من صخرة من جبالهم ليعلمهم أن قوتهم وجبروتهم لا تزيد عن قوة ذلك الطفل الذي قام يخطو ويقع ، وهو يضحك في نشوة ظناً منه أنه بلغ العنفوان ! ولكن الأشقى تحين لناقة الله فعقرها ، لنزوة شيطانية ، فكان هذا نقض العقد بينهم وبين نبي الله صالح ، فحاق بهم ما لم يحسبوا له حساباً .

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) سورة الشمس : ١١ ـ ١٥ .
(٣) سورة المعارج : ١٩ .

عاقبة التكذيب :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾(1).

لما أنذرت ثمود كذبت ، واستغربت ، وقالوا : نحن قبيلة ذات عدد وعدة ونتبع شخصاً واحداً بشراً منا ، إن هذا لهو الضلال ، إنه الجحيم ، وتهكموا وحقَّروا ، وقالوا : ألم يجد الله من يرسل، من بيننا إلّا صالحاً ، إنه لكذاب شرير ، وجاء من بعدهم من قال : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾(2) ويرد الله عليهم ولله الحجة البالغة ، فيقول : ستعلمون يوم الصيحة من هو الكذاب ، وستعلمون أنه الحق ، ولات ساعة علم . يا صالح هاك آية بينة عظيمة ، ناقة نخلقها بين سمعهم وبصرهم ولا يعدل الناقة عند العربي العسجد المسبوك ، خبِّرهم أن للناقة الماء يوماً كاملاً ، ويوماً لهم يشربون ، وأرقبهم إن العذاب واقع بهم إنما ليعذر الله ورسوله ، فلم يردع ثمود عن غيها هذا الاعجاز (خلق ناقة من صفاة

---

(1) سورة القمر : ٢٣ ـ ٣٢ .

(2) سورة الزخرف : ٣١ .

تحمل روحاً وتلد بين يديهم ويحلبون ويشربون لبنها) !

كل هذه الآيات ولا يرعوون ولا يتفكرون ، ما خلق هذا إلّا قادر على أن يطبق تلك الصخور عليهم كما صدعها عن الناقة ، ولكن جماعة قدار وفساق ثمود لم يروا في هذه الناقة إلّا مشاركتهم شربهم ، فأثاروا الفتنة وتنادوا لها ، فَتعَاطى أُحيمِرهم « تبطّر » فانقض على الناقة الآية ، وضرب عرقوبها بالسيف فوقعت على الأرض ، فأصبح الأشقى ، وقومه هم المغضوب عليهم المدمرون إلّا من آمن منهم .

ولا زالت العرب تقول للرجل كثير البطر الخطاء على الناس « متعاطي » .

إن المتعاطي وقومه على ما بهم من قوة وجبروت لم يتحملوا إلّا صيحة واحدة ، فإذا هم هشيم تذروه الرياح . فهل من مدّكر ؟! هل من متفكِّر ؟! إن الذي أرسل الصيحة على ثمود لا زال في السماء ولن يزال . وكل من يتبع سنن ثمود ومن في شاكلتها يصيبه ما أصابها بطريقة أو بأخرى .

عَمَى ثمود :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾(١).

هدى الله ثمود على لسان أخيهم صالح ، ولكنهم عموا

---

(١) فصلت : ١٧ ـ ١٨ .

وصموا واستحبوا طريق الضلال حتى أيأسوا الله ورسوله منهم، فأخذهم الله بالصاعقة، ووصف الله هذه الصاعقة أنها عذاب الهون بما كسبت أيديهم، ونجى الله صالحاً والذين أمنوا، وكذلك ينجّي الله المؤمنين من كل أمة.

شقاق ثمود ولجاجتهم :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۞ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ۞ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۞ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۞ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾(١).

وهكذا يتكرر، تأكيداً وترسيخاً في الأذهان، أن ارسال صالح وغيره من الرسل إلى كل الأمم، إنما هو ليعبد الله وحده لا شريك له ولا مثيل، والعبادة الصحيحة هي اتباع ما جاءت به الرسل، واجتناب ما نهت عنه، حتى إذا جاءت الرسالة المحمدية نسخت

---

(١) سورة النمل : ٤٥ ـ ٥٣ .

كل ما قبلها ، وأصبح الدين الإسلامي هو الدين المقبول عند الله ، وكل ما غيره من كتب يؤمن به ولا يعمل به ﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾[1] .

ولكن الذين ظلموا يتبعون غير سبيل المسلمين ، كل نبي يفترق قومه إلى فريقين ، فريق مؤمن وفريق كافر ، فريق في الجنة وفريق في السعير، وهكذا صار قوم صالح ، واختصموا ، هذا مؤمن وهذا كافر ، هذا يقول : آتنا بما تعدنا ، وآخر يقول : ويلكم آمنوا ؛ والرسول يقول لهم : يا قوم لا تستعجلوا ، وتفكروا ، ما أنزل هذه الآيات إلّا رب العالمين ، فاستغفروه ، إنه الرحمن الرحيم ، يعفو عمن ظلم ويتوب على الآيبين . وما كان جواب قومه إلّا سلباً ومغالطة ولجاجة ، يقولون : إنا تطيرنا بكم أنت ومن اتبعك ، أي تشاءمنا بكم وخشينا أن تصيبنا معرة لنحسكم وشؤمكم ، ولكن الرسول يرد عليهم : إنكم تحملون الشؤم والنحس في عقولكم بكفركم ، بل إنكم في فتنة عمياء بما زين لكم الشيطان من أعمال السوء .

ويخلص منزل القرآن إلى أولئك الرهط التسعة الذين كانوا أفسد قوم صالح ، وكانوا يعملون الموبقات التي جاء صالح بتحريمها ، فإذا هم يتواعدون ويأتمرون به ليقتلوه وأهله خفية ثم يجحدون ذلك فلا يثبت دمه .

وهكذا اتبع الذين جاءوا من بعدهم من كفار قريش ، فقالوا : نخرج من كل قبيلة رجلاً يضربون محمداً ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يستطيع بنو هاشم المطالبة به . ولكن الله منجٍ رسله ومقويهم على الصدع بقول الحق حتى يبلغوا ما أمروا به .

---

(١) سورة آل عمران : ٨٥ .

فلما مكر القوم مكر الله بهم ، ومكر الله فيه هلاك المجرمين ، وما كانت عاقبة مكرهم ؟! انظر إلى بيوت ثمود المنحوتة في الصخر منذ آلاف من السنين ، فهل ترى لها ساكناً أو لأرض القوم عامراً ؟!

ألم يدمرهم الله ويجعل منازلهم خاوية تأوي إليها الثعالب والقطط وأراذل الحيوانات ؟!

لقد حاق بهم ظلمهم ، وقتل آية الله وعملهم الفحش واستكبارهم على رسل الله والمؤمنين .

إنها آية للذين يخشون العذاب الأليم ، ومعتبر للمعتبرين ، وآية أخرى أن الله سلّ صالحاً والمؤمنين من بين أولئك الظلمة ، فلم يصابوا بسوء ، فبعداً لثمود ومن عمل عمل ثمود .

أعجلتهم الصاعقة :

﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۞ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴾[1].

كانوا يريدون قتل صالح والذين آمنوا معه بعد قتل الناقة ، ولكن الله أركسهم ، فأرسل الصاعقة فقضي الأمر وقيل بعداً للقوم الفاسقين . لقد أعجلت الصاعقة القاعد عن القيام ، والقائم عن القعود ، فهل من معتبر ؟!

---

(١) سورة الذاريات : ٤٣ ـ ٤٥ .

القــارعــة :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾(1).

كذبوا بالقارعة ، وقالوا : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾(2) ؟! فجاء الجواب الحق : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾(3) . وهل لثمود وعاد أن يتصوروا هذا على ما بهم من كبر وطغو ؟! لا ، إنما يقولون : ما هي إلّا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ! بلى ، لتبعثن ، وأول الدليل هذه الطاغية التي أعجلت قاعدكم عن القيام ، وقائمكم عن القعود ! هذه الطاغية الساحقة الماحقة ، هي أول دليل على أنكم ستبعثون ثم تحاسبون على كل صغيرة وكبيرة ، فإلى الجحيم عاد وثمود ومن تمذهب بمذهبهما وطغا طغوهما .

هل ترى لهم من باقية ؟!

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾(4).

---

(1) سورة الحاقة : ٤ ـ ٦ .

(2) سورة القارعة : ١ ـ ٢ .

(3) سورة القارعة : ٤ .

(4) سورة النجم : ٤٨ ـ ٥٥ .

انظر أيها اللبيب ، يا من ترى الأثر فتأخذ منه العبر ، انظر إلى مَنِّ الله وإقناعه ، على عظمة المُقْنِع وتفاهة المُقْنَع ، يقول له : الله أغناك ، وهو سبب ما تقتني وتتفاخر به من مال وولد ومدر ووبر ، ليس غيره ، ولكن يُشبَّه لك ، وهذا الذي هو رب الانسان في الأرض هو أيضاً رب الشِّعْرَى في السماء ، آله في الأرض إله في السماء ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، واحد أحد ، بلا وزير ولا شوير ، ولا زوج أو ولد ، متفرد بالصنع مبدع كل شيء لا آله إلاّ هو .

عصت عاد فأهلكها ، وثمود فمحاها ، إلاّ ما كان من صالح ومن آمن معه ، وهو الذي أغرق قوم نوح الذين كانوا أشد ظلماً من تابعيهم ، والذين كان هواهم الأفك والدس والكذب ، أرسل عليهم غاشية السوء ، فبأيٍّ من هذه أيها الانسان المخلوق من نطفة مذرة ، بأيِّ هذه الآيات تجحد ؟ وبأيِّها تتمارى ؟ أليس من أجرى هذا قادر على الجزاء ﴿ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إلاّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1] مؤمن مصدق خاشع ، بلسان ذاكر وعقل متفكر :

بُعْداً لثمود :

﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾[2].

وهكذا عندما نزل عذاب الله ما كانت إلاّ صيحة واحدةً فإذا هم جاثمون لا يتحركون ، كأنهم ما كانوا أغنياء هذه البلدة وكبراءها ، المتصرفين فيها ، ولماذا ؟ لأنهم كفروا ربهم فبُعداً لهم وسوء مآل .

---

(١) سورة الشعراء : ٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) سورة هود : ٦٧ ـ ٦٨ .

ملخص قصة نبي الله صالح :

قال النسابون : هو صالح بن عُبَيد بن ماسح بن عُبيد بن حادر ابن ثمود ـ وقد تقدم نسب ثمود ـ .

أرسله الله إلى قومه ثمود ، وكانوا من العرب العاربة يسكنون الحِجْر بين الحجاز وتبوك[1] ، وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام كسابقيهم ، فدعاهم صالح إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام ، فآمنت به طائفة منهم ، وكفر جمهور ثمود ، وناصبوه العداء ونالوا منه بالقول والفعل ، وهموا بقتله ، فأنجاه الله من ذلك ، وطالبوه بآية كما تقدم ، فخلق الله لهم ناقة آية منه ، فقتلوها فقامت عليهم الحجة ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فأرسل عليهم الصيحة فأصبحوا أثراً بعد عين ، كما تقدم معك . ثم انتقل صالح عليه السلام ـ فيما قيل ـ إلى حرم الله فعاش به حتى مات .

(آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله) .

---

(١) الحجر وتبوك من الحجاز : انظر ـ إن شئت ـ كتابي (معجم معالم الحجاز) .

إبراهيم عليه السلام ، وقومه

إن قصة قوم إبراهيم هي قصة إبراهيم عليه السلام ، نفسه ، ومن التعرف عليه : نسبه ، نشأته ، منشأه ، في كل هذا يظهر لك أيها القارىء المؤمن ، كفر قوم إبراهيم ، وجهاده وحنكته ، وما أعطيَ من الحكمة في الحجة والاقناع ، لو كان الكفار يقتنعون .

فمن هو إبراهيم ؟

يقول ابن كثير رحمه الله ، في قصص الأنبياء[1] :

هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام .

وجاء في هذا النسب أن عمر أبيه كان (٢٥٠) سنة وأن من أجداده من عاش نيفاً وأربع مائة سنة ، وقد عاش سام (٦٠٠) سنة ، وقد تقدم معك عمر نوح .

وهؤلاء على طول هذه الأعمار قد ماتوا ولاقوا ربهم بما قدموا ، وسيجزاهم به إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً أو عفواً إن شاء .

وأن أم إبراهيم كان اسمها (أميلة) وقال ابن الكلبي اسمها

---

(١) قصص الأنبياء : ترجمة إبراهيم ، عليه السلام .

(بونا) بنت كربتا بن كرثي من بني ارفخشذ بن سام بن نوح ، هذا قول ابن الكلبي ، ونسبها هذا يشترك فيه كثير من الأمم السامية ، وإبراهيم نفسه ـ كما تقدم ـ من هذا النسب ، وكان إبراهيم كريماً ، وكان يكنى (أبا الضيفان) وكان له من الأخوة : تاحور وهاران ، وكان لها ران (لوط) ، وسيأتي خبره .

منشأ إبراهيم وأسرته :

المشهور المستفيض أن أسرة إبراهيم كلدانية ، وأرض الكلدان هي بابل ، ذات التأريخ العظيم المشهورة ببقايا مآثر الأمم التي سادت فيها ، وتقع بابل شمال غربي بغداد على الجانب الشرقي من نهر الفرات ، وشهرتها اليوم باسم (الرَّمَادي) . وسنعود في قصة نشأته ونبوته لمناقشة آراء أُخَر .

غير أن هناك أقوالاً ليست ضعيفة تقول : إن والد إبراهيم كان من (أُور) والبون واسع بين بابل وأور ، وقد حددنا بابل ، فأين تقع أور ؟!

المنجد خلط بين أور المدينة والكلدانيين القبيلة ، فقال : إبراهيم الخليل : هو خليل الله وأبو المؤمنين ، تلقى الوحي الآلهي في أور الكلدانيين جنوب العراق ، ومنها نزح إلى بلاد كنعان نحو ١٨٠٠ ق.م وله من الولد : إسحاق وإسماعيل[١] .

فهذا خلط ، إذ إن الكلدان هم أهل بابل ، وبابل في غرب العراق أو الوسط ، وأور جنوب العراق ، وأهلها حاميون ، بينما أهل بابل ساميون ، ومن المشهور أن إبراهيم كان سامياً كما تقدم معك نسبه .

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام : ٧ .

موقع أور : في معجم البلدان (أُوْر) بالضم ثم السكون ، وراء : من أصقاع رامْهُرْمُز بخوزستان .

موقع خوزاستان : تقع إلى الشرق من شط العرب ورأس الخليج الإسلامي ، وقاعدتها اليوم (الأهواز) من بلاد إيران . ويطلق على آثار أور اليوم (تل المُقَيَّر) ثم اطلعت على خريطة العراق ، فإذا آثار أور تظهر غرب الفرات مقابلة مدينة الناصرية ، بين البصرة والكوفة، والبصرة أقرب. إذاً لا اعتبار بالقول بأنها في خوزستان.

مما تقدم يمكن الجمع بين هاتين الروايتين بأن أسرة إبراهيم كلدانية الأصل نزحت إلى أور لسبب ما ـ وهم قوم نزاحون كما ترى فيما يأتي ـ ثم أنها عادت إلى موطنها الأصلي بلد الكلدانيين (بابل) . هذا احتمال ، وإذا كان هناك احتمال غيره فيكون قضية أور هذه ، أما أور غير المشهور ، قرية كلدانية ـ مثلاً ـ أو أن هذا القول غير دقيق .

نشأة إبراهيم : ولد إبراهيم على الراجح في بلد الكلدان حيث أخباره مع النمرود ، وهو ملك بابل في عهد إبراهيم ، ويقول ابن كثير : هذا هو الصحيح المشهور ، غير أنه يورد رواية أخرى تقول : إنه ولد بدمشق ، ويستدرك ابن عساكر قائلاً : والصحيح أنه ولد ببابل ، وإنما نسب إليه هذا المقام ـ يعني الذي قرب قاسيون ـ لأنه صلى فيه ، إذ جاء معيناً للوط عليهما السلام ـ إذاً إبراهيم ولد في أرض بابل ـ غير أنه فيما ترى مقبلاً ليس من أهل العاصمة ـ فشب شباباً أراده الله ورعاه ، فكان ذكياً متفكراً فصيحاً حجيجاً ، وكان يجيل طرفه في ملكوت السموات والأرض ، فإذا رأى كوكباً ظنه ربه ، حتى اهتدى بالتفكير السليم إلى أن الخالق لا يغيب عن خلقه ، فأوحى إليه الله وأرسله إلى قومه ، ولكن قوم إبراهيم ككثير

ممن سبقهم لا يحبون الناصحين ، ولا يرغبون عما ورثوا ، فحاجوه وحجهم ، فألقوه في النار فأنجاه الله .

ويقول كاتبو قصته : فتزوج بنت عمه سارة وكانت عـاقراً ، فانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة ، وابن أخي إبراهيم لوط بن هاران بن تارخ ، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض كنعان ، (أرض فلسطين) فنزلوا حَرَّان ، فمات تارخ وعمره (٢٥٠) سنة .

وكانت (حَرَّان) مدينة وبلاداً تقع بين الموصل والشام ، قريبة من الرقة ، وكانت آنذاك كلدانية . وكان أهل حران يعبدون الكواكب السبعة مثلهم مثل قومهم الكلدانيين وأهل دمشق ، ولـم يكن حينئذٍ مؤمناً غير إبراهيم وامرأته سارة ، وابن أخيه لوط .

وفي هذه القصة : يستبعد أن يكون تـارخ هو الـذي هاجـر بإبراهيم إلّا أن يكون هذا قبـل النبوة . فقـد قص الله علينا ـ كمـا سيأتي ـ أن تارخاً قال لابراهيم : ﴿ **واهجرني ملياً** ﴾[١] .

على أن إبـراهيم دعا أول من دعـا أباه وأهله فـآمنت سـارة ولوط ، ولما تبين إبراهيم أن أباه عدواً لله تبرأ منه .

ومر بك في النسب المتقدم أن إبراهيم ابن تارخ ، والله يقول: ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر** ﴾[٢] . فأبوه آزر بنص القرآن ، وتارخ رواية أهل الكتاب ، والله أصدق وأعز .

يقول ابن كثير : جمهور النسب ومنهم ابن عباس على أن اسم أبيه تارخ ، وكذلك أهل الكتاب ، فقيل إنه لقب بصنم كان يعبده اسمـه آزر ، ولعل لـه اسمان علمان ، أو أحدهمـا لقب . ثم إن

---

(١) سورة مريم : ٤٦ .

(٢) سورة الأنعام : ٧٤ .

إبراهيم وأسرته الصغيرة انتقلوا إلى أرض كنعان (غرب نهر الأردن) فاختار لوط أن ينزل (سَدُوم) كما سيأتي ، بينما ظل إبراهيم متنقلاً داعياً إلى الله ، فهبط أرض مصر فحدثت إحدى معجزاته التي أعطاه الله إياها ، فقد طلب فرعون مصر ـ وهو غير فرعون موسى طبعاً ـ طلب سارة لعمل سوء ، فكشف الله لإبراهيم ما بينه وبين مجلس فرعون ، فمد فرعون يده إلى سارة بالسوء فشُلّت ، فطلب منها أن تدعو ربها يشفيه ولا يعود ، ففعلت ، فمد يده ثانية فأصابه ما أصابه بادىء ذي بدء ، فعاد يطلب من سارة ما طلبه قبل ، فلما يئس منها أهدى إليها هاجر أم إسماعيل فأهدتها إبراهيم ليتسررها لعقم سارة، فولدت هاجرُ إسماعيلَ ، ثم إن الله منح سارة الولد بعد ذلك فولدت إسحاق ، فذهب إبراهيم بولده إسماعيل إلى البيت الحرام فتركه وأمه فيه ، فكان ذريته العرب أو شطرهم . ثم ان ابراهيم مات عن مائتي (٢٠٠) سنة كما روى ابن حبان في الصحيح . ثم دفن في فلسطين ، فسمي موضع قبره باسمه ، وقام عليه مسجد جامع ثم مدينة تعرف باسم الخليل ، هي اليوم تحت الاحتلال الإسرائيلي لضعف المسلمين وهوانهم على الله والناس ، حتى طمع فيهم شذاذ الأفاق فصاروا يحتلون ما شاءوا من بلادهم ويتركون ما شاءوا ، عن عيافة وعفة ، لا خوف وهيبة . وليست هذه هي قصة إبراهيم ، إنما موضوع كتابنا النصوص القرآنية ، وهذه تتبع ، وفيها ما لم يتقدم لأنها كلام العزيز الحكيم .

كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ ذكياً فصيحاً حجيجاً ، ألهمه الله حكمة الإجابة ، وفهم الكون الفهم الذي استطاع قبل النبوة أن يفرق به بين الزائل والباقي ، وكيف أن الزائل لا يخلق وهو الفاني ، وإن الخالق من شروطه أن يكون باقياً لاستمرار الخلق والفناء ، الإحياء والإماتة ، لذا كان تفكيره : أين الخالق ؟!.

وكان لنبوته أربع مراحل : مرحلة التفكير والاهتداء ، ومرحلة الإنذار والمحاجة ، مرحلة اليأس والهجرة ، مرحلة الحياة في المهجر ، ومتابعة العمل :

١ ـ مرحلة التفكير والاهتداء :

وهذه يقصها الله علينا في قوله مخبراً عن إبراهيم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۞ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(١).

إذاً ، إبراهيم كان يتطلع ويتلفت فيما حوله بحثاً عن الخالق لهذا الكون ، فيجيل بصره في ملكوت السموات والأرض (ملك الله الواسع) ليستيقن ويزداد يقيناً أن هذا الكون لم يخلق باطلاً ، ولا عبثاً ، ولا أتى صدفة ، فهل هو صنع من غير صانع ؟! إذاً لا بد أن يكون له رب خلقه وأبدعه حتى صار منه وطاء وغطاء ، وشمس وظل ، ونور وظلام ، ومطر ومحل ، كل هذه آيات لا بد أن لها مدبراً

---

(١) سورة الأنعام : ٧٥ ـ ٧٩ .

كي لا يطغى الليل على النهار فيصير سرمداً، ولا نهار يطغى على الليل فيصير سرمداً، ولا المطر يهطل فلا يكف، والجدب يدوم حتى تموت الأرض، هذا ملكوت عجيب له رب هو ربي، فأين ربي؟! فلما جاء المساء رأى كوكباً مضيئاً باهراً ، فهتف : هذا ربي ! فظل يراقبه حتى غاب ، فحزن إبراهيم : أيغيب الرب ؟! كلا .

وفجأة طلع القمر (بزغ من جوف الظلام) فاستبشر ابراهيم ، وقال : هذا ربي ! ولكن القمر غاب أيضاً ، فانكسر الفتى ، وقال : ليس هذه أعمال الخالق الساهر الرقيب ، وإنني لم أهتد إليه في هذه الأجسام المحيطة . ومع إيمان إبراهيم بأن الخالق يسمع ويبصر ويهدي ويضل ، قال : إن لم يهدني ربي فسأكون من الضالين ، وظل إبراهيم ساهراً يقلب بصره من أقصى السماء إلى أقصاها ، لعل الله يظهر له في الأفق ، وانتهى الليل ، وفجأة بزغ ضياءً ملأ الأفق ، بزغت ذكاء من الأفق الشرقي ونشرت ضياءها على الحقول والناس ، فظن إبراهيم أنه وجد ضالته ، فقال : ﴿ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ ﴾ ! ولكن هذا الكوكب الوهاج واصل سيره في جادة الأفلين ، فإذاً هؤلاء القوم الذين يعبدون الشمس والذين يعبدون الكواكب السبعة ليسوا على حق ، فهم مشركون وثنيون ، فتبرأ مما يعبدون من دون الله ، وعلم إبراهيم علم اليقين أن خالقاً خفياً لا يظهر للعيان هو المتحكم في هذا الكون ، فهو خلق الليل والنهار والسموات والأرض وما فيهن ، فأنا أوجه وجهي له في استسلام وعبودية ، لا شرك فيها ولا شك ، بل إيمان خالص : قولاً وعملاً ، وسبحان الله رب العالمين.

فإذاً فقد اهتدى ابراهيم (بالفطرة) إلى أن الله خالق كل شيء ، وهو المعبود بحق لا سواه .

٢ ـ مرحلة الإنذار والمحاججة :

وأنذر قومه وحاجوه ، وكثر لجاجهم فحجهم إبراهيم :

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۞ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۞ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾(١).

قال له قومه : من الله ؟ من ربك يا إبراهيم ؟ نحن لا نعرف إلا ما يعبد آباؤنا ، وأنت مفتر كاذب .

قال إبراهيم : أفي الله شك خالق السموات والأرض ؟ أتحاجوني فيه وقد هداني الى صراطه المستقيم ، أفلا تذكرون وتتفكرون ، يا قوم من خلقكم وخلق أباءكم! وجعل لكم هذه الأرض بساطاً ، والبحر مركباً ، وجعلكم خلفاء من بعد عاد وثمود ! أتخوفوني عبادة من يستحق العبادة ، ولا تخافون اعتداءكم على حق الخالق القادر ، أينا أحق أن يخاف ؟! أالذي يعبد الله لا يشرك به شيئاً أمَّن يفتري على الله الكذب ، فيحلل ما حرم الله ويحرم ما حلل الله ، شهوة وانحرافاً ووراثة سيئة ما أنزل الله بها من سلطان ، أم

---

(١) سورة الأنعام : ٨٠ ـ ٨٣ .

العابد الموحد المؤمن بأن كل مـا على الأرض وفي السماء صنـع الصانع الأحد ؟! .

إن الأمن والنصر وطمأنينة القلـوب ومحبة الله والنـاس هي للمؤمنين القـائمين بـالقسط ، الـذين هـداهم الله إلى الـطيب من القول ، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئـك لهم الأمن ، والعاقبـة للمتقين . ما هذه الحجة الناصحة المسكتـة ؟! يجيء الجواب من العزيز الحكيم ، فيقول: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾[1] والله يرفع درجـات من يشاء من عبـاده المحسنين ، وهو عليم بعبـاده حكيم بمعالجة شؤونهم .

وينذر إبراهيم قومه ويكرر ويحذر :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۞ وَمَا أَنتُم

(١) سورة الانعام : ٨٣ .

بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

إنه النصح من الناصح الأمين : اعبدوا الله وحده ، هي رسالة كل نبي ، نعم اعبدوا الله ذلكم خير لكم لو تعلمون ، وما معبوداتكم هذه غير أوثان لا تسمع ولا تبصر ، أتعبدون من لا يسمع ولا يبصر ؟! وكيف يستطيع هذا المسخ الذي خلقتموه بأيديكم أن ينفع ويضر ؟! إنه السخف بعينه ، إنه الكفران المبين ، إنه الإفك ، الذي لا يجلب رزقاً ولا يحول دونه ، هي شيء لا قيمة له ، مهما كانت قيمته ، مهما كانت القيمة ضئيلة .

إن ربي الله الخالق الرازق ، فسيروا في الأرض وتفكروا وكلوا من طيبات ما خلق الله والبسوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، إن الذي خلق هذا الخلق سيفنيه ثم يعيده مرة أخرى فتحاسب كل نفس بما كسبت ، ولا ظلم ذلك اليوم ، فالحاكم هو العادل العام .

أكثر ابراهيم من النصح وصدق النصيحة لقومه ، ولكنهم في غي يعمهون ، فما كان جوابهم بعد فراغ صبرهم الا أن أمروا بنار تؤجّج ، ثم يوضع ابراهيم في رأس المنجنيق لأنهم لا يستطيعون قذفه في النار بأيديهم لتأجحها ، ثم قذفوا به إلى وسط نار صارت كالجبل ، فقال : ﴿ **حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ** ﴾[2] فبنى الله عليه ظلة تقيه من النار ، وقال :

---

(١) سورة العنكبوت : ١٦ ـ ٢٤ . (٢) سورة آل عمران : ١٧٣ .

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۞ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۞ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

فخرج إبراهيم كـأن لم يدخلهـا ، آية مبصـرة ، بل معجـزة كبرى ، ولكن الكافرين لا يفقهون .

النمرود يحاج إبراهيم :

بعد هذه المعجزة يطلب النمرود (فرعون العراق) إبـراهيم ليسأله ، من ربك ؟ فيقول إبراهيم : ربي الله الذي يحيي ويميت . فتلمع الفكرة الخبيثة في عيني عدو الله ، أليس هو يقتل من يشاء من أهل بابل ويستحيي من يشاء ؟! إذاً هو أيضاً يحيي ويميت ، فيقول لخليل الرحمن : أنا أحيي وأميت . فيأتي الجواب كالصاعقة من نبي الله ، فيقول : **﴿فإنَّ الله يَأْتِي بِـالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَـأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ﴾**(٢) .

أي إذا كنت إلهـاً كالله فـافعل كمـا يفعل ! فبُهت عـدو الله وأُسكت ، ففاز إبراهيم بالمناظرة بين الحق والباطل .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢).

---

(١) سورة الأنبياء : ٦٩ ـ ٧١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٨ .

أي ألم تر يا محمد ، ويا مؤمنون ، ألم تروا إلى هذا الكافر يحاج إبراهيم في الله وقد أتاه الله النبوة (الملك) ويعانده ، ويدعي ـ زوراً وكفراناً ـ بأن يعمل كعمل رب إبراهيم ، فلما جاءه ما يعجزه ولا يدخل في نطاق حيله ، أُسكت وأُلجم بلجام الظالمين الذين لا يهديهم الله سبيلاً غير سبيل جهنم ، أبعدهم الله ومن يعمل كما يعملون .

كيف يحيي الله الموتى ؟! :

لا شك أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ نظر في المهمة التي أوكله الله بها ، وملأ قلبه الإيمان ، ولكنه أراد أن يزداد إيماناً ، وتطمئن نفسه إلى برهان كفلق الصبح أو كشمس الضحى ، فطلب من ربه أن يريه عملية الإحياء والإماتة ، فاتْلُ قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(1).

فإبراهيم يريد من ربه أن يرى كيف يكون شيء ميتاً ثم يحيى ، ولكن رؤية ذلك عياناً هي من خصائص الرب جل وعلا ، فلا يطلع عليه أحد ، إلّا أنه من الممكن رؤية الميت الذي أعيدت إليه الحياة ، لذا أمر الله إبراهيم بأن يذبح أربعة طيور فيجمعهن ويخلط

---

(1) سورة البقرة : ٢٦٠ .

لحمهن خلطاً ثم يوزع هذا الخليط على عدد من الجبال بحيث يكون على الجبل الواحد قطع من الطيور الأربعة ، ثم يتنحى فيدعوهن .

فجاءت الطير تتسابق بلا عوق ولا وهن ! كيف تجمعت هذه الطيور والتحم بعضها إلى بعض وأعيدت فيها أرواحها ؟! هذا صنع المحيي المميت ، قال : كن ، فكان .

ويناقش ابراهيم قومه ، ويظهره الله عليهم :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾(١).

يسأل إبراهيم سؤالاً انكارياً على قومه ، ما تعبدون ؟ إنكم تعبدون الباطل ، أصناماً ما أنزل الله بها من سلطان ، قالوا : هذه معبوداتنا ، وجدنا عليها آباءنا عكوفاً فنحن على آثارهم ، نعكف عليها ونسجد ونذبح لها ، ويناقشهم إبراهيم ويطيل تعديد باطلهم : هل يسمعون دعاءكم ؟ هل ينفعونكم ؟ هل يضرونكم ؟ فكان

---

(١) سورة الشعراء : ٦٩ ـ ٨٢ .

جوابهم جواب المفحم العيي : أباؤنا كذلك كانوا يفعلون .

فيعلن إبـراهيم كفرانـه بهـا ، فيقـول : إن معبـوداتكم أنتم وأباؤكم عدو لي وبـاطل أستبيح في الأرض ، وأن رجائي في الله الواحد الأحـد ، الذي خلقني وهـداني ، ويرزقني ، ويشفيني من المرض ، وإذا جاء أجلي يميتني ، وإذا جاء البعث يحييني ، وأرجو أن يغفر ذنوبي يوم يقوم الناس بين هائب وخائب ، وناجٍ وسابق ، هذا هو ربي ، وكل من يعبُد ويُعبَد من دونه فهو عدوي وعدو الله ، ومـأواه جهنم وبئس المهـاد : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِـرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِـهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(١) تلك حجة الله آتاها إبراهيم ، ولكن المفسدين لا يؤمنون ، فلم يؤمن لابراهيم غير ابن أخيه لوط ابن هاران .

٣ ـ مرحلة اليأس والهجرة :

بذل إبراهيم ما بذله أولي العزم من الرسل لأممهم ، وجاءهم بالبينات، وأبلغهم رسالة ربه ونصح لهم كنصح الرسل لمن أرسلوا إليـه ، حتى انبرى إليـه أقرب النـاس منـه ، وأحقهم بمؤازرتـه ، وأجدرهم به رحمة ، هو أبوه أزر ، فقال : أترغب عن آلهة أبيـك وقومك ، أهجر هذه الأرض أو عاقبتك :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ

---

(١) سورة النساء : ٤٨ و ١١٦ .

ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۞ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۞ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۞ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ۞ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾(١).

يقص الله ـ جل جلاله ـ علينا مخبراً أن إبراهيم نبياً ، وأنه كان من الصديقين ، وهم الذين يؤمنون بالغيب ويصدقون به ، وأن إبراهيم ـ فيما يبدو ـ كان آخر رجائه من قومه أن يخلص إلى قلب أبيه ، فتوسل إليه رجاء أن يهديه الله ، فيقول : يا ابتي ! كيف تعبد ما لا يسمع ولا يرى ، ولا يضر ولا ينفع ﴿ولاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ يا أبتي ! إن الله أرسلني وآتاني من العلم ما لم تعلم ، فآمن بالله واتبعني تهتد إلى صراط الله المستقيم ، يا أبتي ! إن الذين يعبدون الأصنام ويحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله إنما يتبعون الشيطان ، يعبدونه بطاعته ، ألم تعلم أن الشيطان عصياً للرحمن ، يا أبتي ! إنك إن عصيت الله واتبعت هواك وما يعبد قومك فإني لا آمن عليك عذاب الله الذي أعده للعصاة.

فماذا قال آزر؟ . قال : أترغب يا إبراهيم عن آلهتي وآلهة أبائك وأجدادك ، لأن أصررت على هذا لترجم وتخرج من الأرض ، فاخرج واهجرني ولا تعد لمخاطبتي بهذه البدعة التي اخترت.

---

(١) سورة مريم : ٤١ ـ ٤٨ .

فلم يجد إبراهيم عندئذٍ إلا الهجرة ، فقال لأبيه : ﴿ **سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي** ﴾ وسوف أعتزلكم فلا أشارككم في ما تعبدون من دون الله الخالق الرازق ، وادعو ربي وحده ، ولن أكون ـ إن شاء الله ـ إلّا مستجاب الدعوة .

وهنا يبرز استنتاج : يقول أهل الكتاب : إن تارخ (آزر) هاجر بابنه إبراهيم وابن ابنه لوط إلى حَرّان ، ومات بها قبل أن يهاجر إبراهيم وابن أخيه مرة أخرى إلى أرض كنعان . وهنا يدخل الشك في روايتهم ، لأن إبراهيم من سياق القرآن فر بإيمانه ولم يؤمن له غير لوط فهاجر معه كما تقدم .

وهذا القرآن يوضح الجانب الأكبر من سبب الهجرة :

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(1).

وهكذا هاجر إبراهيم ، وظل أبو الأنبياء، أبو الأضياف، عليه صلاة الله وسلامه يتنقل من مهجر إلى مهجر ، كما سيتبع ، وقبل أن يودع القوم ألقى فيهم البيان الذي يبرىء ذمته من التبعة ، مما يلحق

(1) سورة العنكبوت : ٢٥ ـ ٢٧ .

بهم ، فيقول : هذه عجالة في الحياة الدنيا ومتاع سرعان ما ينقضي ، ثم يأتي يوم الحساب ، وهناك تتباغضون وتتلاعنون ، لأنكم لم تتناصروا في الدنيا على الحق وعمل الخير ، وها أنا مهاجر إلى حيث يجعل لي الله من أمري يسراً . وقام لوط ابن أخيه فقال : أنا معك إلى الله ، فكافأ الله خليله على هذا الاخلاص وتحمل تلك المحن بأن جعل في عقبه النبوة بعد أن رزقه ولدين هما : إسماعيل وإسحاق ، ومن وراء إسحاق أتى ولد لاسحاق يعقوب ، وأتم عليه النعم في الدنيا فتنقل في الأمصار وبنى بيت الله وعاش عمراً مديداً بلغ فيما يقال (١٨٠) سنة .

ثم أراد أن يبرهن لأولئك المشركين بأن أصنامهم التي يعبدون هي خرس صم لا تفقه شيئاً ، صنعوها جهلاً منهم ثم عبدوها ضلالة وغواية لعدم معرفتهم رباً غيرها ، ولكن كبُر عليهم أن يأتي مثل إبراهيم وهم يرونه ولداً من عيالهم فيدعوهم إلى الله ويدعي - بزعمهم - أنه أعلم منهم ، فكيف يكون هذا ؟ وقد قال الذين جاءوا من بعدهم : « أليس أحد عظيمي القريتين أحق من محمد بالرسالة ؟ » والله أعلم حيث يجعل رسالته . فعمد إبراهيم الى خطة ، قال في نفسه : إن لم يفقهوا بعدها فلن يفقهوا أبداً .

يقول رب إبراهيم جل وعلا :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ * قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ * قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۞ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾(١).

يقول الله سبحانه وتعالى : لقد وهبنا إبراهيم العقل النيِّر والبصيرة المبصرة ، وإنه سبق في علم الله صلاحه وطهارة قلبه من كل ما يغضب الله ، فقبل أن يغادر أرضهم ناقشهم مناقشة المُنكِر المسفه لأحلامهم ، فهو يقول : يا قوم ما هذه التماثيل ؟ أتعكفون على ما لا ينفع ولا يغني عنكم شيئاً ؟! فما كان جواب قومه إلّا الفتنة العمياء ، فتنة كل الشعوب : هذا شيء ورثناه عن أبائنا وأجدادنا ، ولن نتخلى عنه لقول رجل منا .

فلما أكد لهم أنه ضلال وأن الله هو المعبود الحق ، فهو ينفع ويضر ، ويحيي ويميت .

قالوا : أحقاً ما تقول ؟! سؤال استهزاء ومكر ، قال لهم : الذي خلق السماوات والأرض ألا تعلمون ذلك ألا ترون أنها متقنة الصنع ، وأنا أشهد أن الله هو خالقها ومبدعها .

ولكن القوم صموا آذانهم ، وأغلقت قلوبهم ، فقذف إبراهيم بآخر ما في جعبته من سهام ، فتحين لهم فكسر أصناماً فجعلها حطاماً متناثراً ، واستثنى الأكبر منها لحيلة هو يعلمها ، لعل القوم يسألونه فيقولون : يا ربنا الأكبر ! من فعل هذا بعيالك وعشيرتك ؟! فإذا لم يجب ، يقول لهم إبراهيم : هذا رب لا يعلم بل لا يرى ولم يسمع من فعل هذا بزملائه ! فكيف تعبدونه ؟! ألا تعقلون ؟!

---

(١) سورة الأنبياء : ٥١ ـ ٥٨ .

فتلاوموا فيما بينهم : لقد صدق الفتى ، فلو كان هذا الصنم يفهم أو يعقل لقال لنا : فلان فعل هذا.

لكن القوم لم يلبثوا أن عادوا ديدنهم فحملوا على إبراهيم وقرروا الانتقام لآلهتهم رغم اكتشافهم أنها آلهة زائفة ، فأخذوا يتساءلون فيما بينهم : من فعل هذا ؟!

﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۞ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۞ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾(١).

وجاء الجواب من بعض المخبرين بأن رجلاً اسمه إبراهيم كان قد توعّد بالكيد لها ، وبدأ التحقيق أمام الجمع ، فسئل : أأنت حطمت أصنامنا ؟ فيعطي إبراهيم الحجة ليضعهم أمام غفلتهم وغياب عقولهم ، فيقول : إن كبيرهم هو الذي حطمهم ، فاسألوه ، حققوا معه إن كان ينطق ! فتلاوم القوم ، فقالوا : إن هذه الأصنام التي لا تعرف من أضر بها أحرى بها ألّا تعرف من عبدها وقرَّب لها ، غير أن اللجاجة وهي أسوأ أدواء الأمم ما لبثت أن عادت إليهم ، فإذا هم يشيرون إلى نبي الله المرسل ، قائلين : أنت تعلم أن هؤلاء لا

(١) سورة الأنبياء : ٥٩ ـ ٦٥ .

ينطقون ، بل ولا يرون من كسّر أخوانهم ولا سمعوه ، قالـوا ذلك وأصابع الاتهام موجهة إلى إبراهيم . فيقول إبراهيم : سبحان الله وتعالى عما تصفون ، أأشياء لا تنطق ولا تسمع أو ترى تعبد ؟ أين أحلامكم ؟ أين أفهامكم ؟ أليس فيكم رجل رشيد ؟ ﴿ **أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ** ﴾ .

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ۞ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۞ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۞ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾(١).

لقد أتيتم الكفر بعينه ، إذ تعبدون من دون الله ما لا يضر ولا ينفع ، سفهتَ أحلامكم وطاشت عقولكم ، وقد دعوتكم إلى إلـه السماوات والأرض الذي خلقكم وما تعلمون وما لا تعلمون ، فإن استطعتم كيداً فكيدوني ولا تنظرون .

وجاء قرار محكمـة البوار ، فقـال قاضيهم : أحـرقوه بـالنار لتـرضى عنكم الآلهة ، فهـذا قد عمـل عملاً شنيعـاً لا يجـزاه إلاّ السعير . وقُرِّب المنجنيق ووُضِع إبراهيم في رأسه ثم قُذِف به نحو النار ، وهو يقول : ﴿ **حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ** ﴾(٢) .

---

(١) سورة الأنبياء : ٦٦ ـ ٧١ .

(٢) سورة آل عمران : ١٧٣ .

فجاء الأمر الناقض لأمرهم ، موحياً إلى النار أن تبرد جوفها لإبراهيم ولا تمسه بسوء ، فهو من عباد الله المخلَصين ، فتكونت على إبراهيم خيمة داخل النار ليست كالخيام إنما هي من رحمة الله ، فلم يشعر إبراهيم بحرارة النار ولا رأى سناها ولم يلتفح بوهجها ، حتى إذا خمدت تلك النار خرج إبراهيم سليماً معافى . ﴿ **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾[1] .

٤ ـ مرحلة الحياة في المهجر :

عاف إبراهيم بعد ذلك الأرض ومن عليها ، ويئس من الكلدان وملكهم النمرود ، فهاجر ـ كما قدمنا ـ شمالاً إلى (حَرَّان) ولكنه غادرها إلى أرضَ كنعان ، إلى الأرض التي بارك الله حولها ، وكان معه ابن أخيه لوط ، وزوجته سارة ، وزوجة ابن أخيه ، أربعة نفر مهاجرين في سبيل الله ، ومن هاجر إلى الله فالله مضيِّفه ، وهو ضيف عليه ، فلما عبر النهر (نهر الأردن) قيل له : العبراني .

وتنقل إبراهيم فسافر إلى مصر وعاد إلى فلسطين ، ثم انتقل بابنه إسماعيل وأمه إلى بيت الله الحرام[2] ، ثم ماتت سارة بعد أن انجبت له اسحاق ، ودفنها في مغارة في (حبرون) ، وما زال الله يمد لإبراهيم في العمر ويعطيه من المال والولد حتى وافاه الأجل فدفنه ابناه : إسماعيل وإسحاق ، عند زوجته سارة في حبرون ، فسميت الخليل ، فهي اليوم من مدن فلسطين الأسيرة بيد بني صهيون ، لذل العرب وهوانهم .

---

(١) سورة الصافات : ١٨٠ .

(٢) انظر قصته ـ إن شئت ـ في كتابي فضائل مكة وحرمة البيت الحرام .

الله جل وعلا يمتن على إبراهيم ويعدد نعمه :

قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾[1].

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[2] وكان إبراهيم عليه السلام يتشوق إلى الولد ، وكانت سارة عاقراً ، فلما وهب لها فرعون هاجر ، وهبتها بدورها إلى إبراهيم فأنجب إسماعيل جد العرب أو نصفهم ، ولكنه فيما يبدو ظل يحن إلى ولد من ابنة عمه سارة ، فاكرمه الله بذلك ، فهو يمتن عليه بهذا ، ويؤكد أن هذه الهبة لاعتزاله الكفرة وعبادتهم الفاسدة.

ثم يقول الرب عز وجل :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۝ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾[3].

ومن وراء إسحاق جاء يعقوب ، وكل من إسحاق ويعقوب وإسماعيل كان رسولاً نبياً ، وأعطاهم الله الإمامة ، وهداهم إلى إقامة الصلاة والزكاة وطاعة الله الخالصة ، وحصر في ذرية إبراهيم النبوة التي كان آخرها رسالة سيد الكائنات محمد ﷺ .

---

(١) سورة مريم : ٤٩ .

(٢) سورة الكهف : ٤٦ .

(٣) سورة الأنبياء : ٧٢ - ٧٣ .

وليست هذه كل قصة إبراهيم ، إنما هذا كتاب عبر ، فآتينا فيه على ما قل ودل . ولله عاقبة الأمور .

أوليات ومعجزات لإبراهيم :

كان لإبراهيم عليه السلام ، أوليات لم يسبق إليها في العالم ، وله معجزات ليست لبقية الأنبياء في نوعها ولطف الله بها ، باستثناء سيد العرب والعجم الذي كانت معجزاته تبهر المؤمنين قبل المشركين .

أولياته : قيل أن إبراهيم أول من شاب ، فلما رأى الشيب قال : ما هذا يا ربي ؟! قال الله عز وجل : هذا الوقار . فقال : اللهم زدني وقاراً . فاشتعلت لحيته ورأسه شيباً .

وقيل : إن إبراهيم أول من اختتن ، وقد بلغ (١٢٠) سنة ، وقيل ثمانون سنة[١] . وقيل أول من لبس السراويل إبراهيم ، وأول من استحد (أي قص شعر العانة) وأول من أقرى الضيف (أي قدم له طعام الضيافة) ، وأول من قص شاربه[١] .

معجزاته : أما معجزاته فمن أهمها : نجاته من النار بنص القرآن الكريم ، فلم يعرف عن أحد قبله ولا بعده قذف في النار وخرج منها سالماً ، وذلك كما قدمنا آنفاً[٢] .

ومنها : أن حملت له سارة بعد أن أصبحت عجوزاً ليس مثلها يلد ، وقص القرآن القصة فقال :

﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ

(١) قصص الأنبياء : ١٥٩ .

(٢) روي أن أحد المؤمنين في اليمن قذف في النار في عهد أبي بكر فلم تحرقه .

عَجِيبٌ ۞ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾[1].

ومنها : المقام، مقام إبراهيم ، وارتفاعه به وهو يبني الكعبة ، وارتفاعه به وهو يؤذن في الناس بالحج[2] . ومنها : أن أذانه ذاك سمعته كل الأمم حتى الذين في الأصلاب .

ومنها ، فيما قيل : أن الله كشف له ما بينه وبين فرعون حين همّ عدو الله بسارة ، فرآه وعلم أنه لم يحدث سوءً .

ومعجزاته ومعجزات الأنبياء تجل عن الحصر ، إنما هذا موجز للتنوير ، وليس هو من صلب الكتاب .

---

(١) سورة هود : ٧٢ ـ ٧٣ .

(٢) راجع فضائل مكة إن شئت ، للمؤلف .

قوم لوط

كان لوط عليه السلام مع عمه إبراهيم أثناء مهاجرته من أرض النمرود أرض الكلدان ، فهو لوط بن هاران بن تارح[١] ، أي أن هاران أخو إبراهيم ، فلما نزلا قرب حبرون (الخليل اليوم) استأذن لوط عمه[٢] لينزل (سدوم)[٣] من أرض الغور الأردني ، وكان موضعها يسمى غَوْر زغر ، وسدوم أكبر محلة هناك ، وأهلها من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية ، وأردأهم سيرة وسريرة ، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ، و ﴿ **لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾[٤] .

ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين .

فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ونهاهم

---

(١) العرب تقول تارح بالمهملة وأهل الكتاب يقولون بالخاء المعجمة ، لذا فقد يرد هنا باللفظين .

(٢) قصص الأنبياء ، قصة لوط .

(٣) قال المحققون : سدوم ، بالدال المعجمة ، وهي الآن تحت البحر الميت، خسف الله بها .

(٤) سورة المائدة : ٧٩ .

عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات ، ولكن أهل سدوم استمروا في فجورهم وتمادوا في غيهم ، وسفهوا قول لوط وسخروا منه قائلين : (إن آل لوط قوم يتطهرون) أي لا يحبون ما نأتيه من القذارة . فلما أيأسوا الله منهم حل بهم عذابه ، وجعل عذابه مثلة لم تحل بأحد غيرهم ، إذ اقتلع بلدتهم فرفعها إلى السماء ثم قلبها عاليها سافلها، وأبزغ مكانها بحيرة كانت تسمى البحيرة المنتنة أو بحر لوط ، وتعرف اليوم بالبحر الميت . وأخبر الله بما أحاق بهم فيما يتبع من آياته المحكمات .

وكانت حياة أهل سدوم بعد أن نزل بها لوط على ثلاث مراحل : مرحلة الانذار ، ومرحلة الجدل ، ومرحلة التدمير .

١ ـ مرحلة الانذار :

نزل لوط بسدوم فهاله ما يفعلون ، وما كان رآه من قبل ، إذ يأتون الرجال إتيان النساء، ويجاهرون به في ناديهم أي جمعهم ، ويخرجون من أدبارهم الأصوات بلا حياء ولا خجل مما يدل على أن القوم وصلوا إلى درجة فظيعة من الانحدار الخُلُقي ، فدعاهم لوط إلى المثلى ، وقال : إن هذا هو المنكر ، فما زادوا أن حقروه ورفضوه اجتماعياً ، وكذبوه ، بل وطلبوا منه العذاب تحدياً واستخفافاً .

وفي ذلك يقول العزيز الحكيم :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ

مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۞ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ۞ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ۞ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ۞ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ۞ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ۞ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ۞ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

هكذا يقص علينا العزيز المتعال أن قوم لوط قد كذبت الرسالة ، وأن لوطاً مرسل من الله ، وأنه أبلغهم رسالة ربه ، فقال لهم اتقوا الله وتوبوا إليه عن هذه العادة السيئة التي لا يرتكبها إلّا من كفر بالله وجحد ما حلل وحرم ، وأسرف وغير ناموس الحياة ، وشرع الله ، ورفض النظافة التي هي شطر الإيمان ، واختار القذارة التي حرمها الله وأوجب لمن أتاها سخطه .

ثم إن لوطاً قال لهم : يا قوم إني لكم رسول من الله أبلغكم ما حرّم ، وأرشدكم إلى ما حلّل ، فأطيعون ، أي اتبعوني أهدكم سبيلاً سوياً، وإذا كنتم تخافون المغرم فلا أطلب منكم أجراً، إن أجري من الذي أرسلني ، وأنا ناصح لكم شفيق عليكم ، أتأتون الذكران وتذرون الإناث ؟! ما هذه الفعلة الشنعاء التي لم تسبقوا إليها ، كيف تذرون الزوجات الطاهرات اللاتي أحل الله لكم منهن ما تبتغون ، وتغيرون على ما حرم ربكم ، إنكم معتدون ، معتدون على محارمه ، معتدون على حق أزواجكم ، معتدون على رجولة الرجال الذين لم يخلقوا لهذا ، إنما خلقوا عباداً لله يعبدون وينشرون

---

(١) سورة الشعراء : ١٦٠ ـ ١٧٤ .

دينه ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فتعسفونهم وتجعلونهم نساء تمتطونهم ، ساء ما تعملون ، وقبح ما تفعلون . .

لم يعجبهم ذلك فقالوا : تنتهي عن هذا أو أخرجناك من قريتنا ! قال لوط : إنكم عندي من المبغضين المكروهين ، ما دمتم تصرون على عمل السوء هذا . ثم دعا ربه في النجاة فنجاه، كما سيأتي ، الاّ امرأته قد كانت كافرة ، وكانت ـ فيما ترى مقبلاً ـ تخبر أهل سدوم بمن يحل على لوط ليفعلوا به الفاحشة ، فانجى الله لوطاً وأهله ودمر سدوم وفيها العجوز المنافقة امرأة لوط .

أمطر الله حجارة من السماء على قوم لوط فهلكوا ، فكان مطر سوء ، ولعل هذا المطر كان تمهيداً للعذاب الأكبر إذ من الثابت وستراه أن الملائكة اقتلعت سدوم فصعدت بها إلى السماء حتى سمع ملائكة السماء نباح كلاب القرية ثم قلبوا عاليها سافلها ، كما قدمنا .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾(1).

وهنا يكرر لنا القرآن أن قوم لوط كذبوا بالنذر وكذبوا

---

(1) سورة القمر : ٣٣ ـ ٤٠ .

المرسلين ، وجحدوا أن الله أرسل إليهم رسولاً يحلل لهم ما أحل الله ، ويحرم ما حرمه ، وتكرار القرآن له حكم بلاغية تربوية ، من أهمها ترسيخ الحدث في الأذهان لتيقنه بصيرورته متواتراً في سور كثيرة لا لبس فيه .

ثم يأتي الخبر الباهر من السماء بأن القوم حصبوا ، والحاصب : الرجم بالحصباء وهي دقاق الحصى ، ومن حصبه الله ليس كمن يحصبه الناس ، فماذا حدث بعد ذلك ؟ نجّى الله المؤمنين آل لوط بليل (سحر) وهو آخر الليل قبيل الفجر حين يكون المنعمون والعصاة يغطون في نوم عميق ، وهذه نعمة امتن بها الله جل جلاله ، جزاء شكران آل لوط وقيامهم بما أمروا ، والجزاء غالباً يكون من جنس العمل ، قاموا بالأسحار يستغفرونه ويسبحونه ، فقال لهم : انجوا إن القوم مصبّحين ، ولقد أعذر لوط إذ أنذرهم بطشة الله فحاجوه وماروه أنه مفتر ، فيأتي بما يدعي إن كان صادقاً .

وعندما جاءت الملائكة تنذر لوط أسرع كفرة أهل سدوم يراودونه عن ضيفه ! إنها الغمة ما بعدها غمة ، نبي يرشد ويعظ ، فيأتي من يعظه ليقول له : خل عن ضيفك لقد علمت غرضنا منه ، فماذا ينتظر مثل هؤلاء ؟! جاء الذي ينتظرون ، فقد طمس الله على أعينهم فإذا هم لا يبصرون ، عدل وأيما عدل ، عين تحب الخبائث وتترك الطُّهر حقها أن تطمس ، فلما طمس الله على أعينهم قال : ذوقوا عذابي بعد نذري ، ثم قفَّى فصبحهم بالعذاب المهين ، مستقر في أرضهم لا يفلت منه أحد ، الفاعل والراضي والساكت على غير رضا . فهل من متعظ ؟ هل من يتذكر هذا العذاب ويخشى أن يحل به ؟ فقد انتشر هذا الوباء وهذا الفسق والفجور في جميع الأمم اليوم ، وصار يسمع جهرة في الشوارع والمقاهي ، بل بلغ الأمر

ببعض الدول التي يسمونها المتحضرة إلى أن يناقش هذا الخزي في مجالس ممثلي الشعوب المنتخبين على أنهم صفوة المجتمع الذي يمثلونه ، يناقش هذا العار ليكون مشروعاً لا اعتراض عليه ، بمعنى أن يتزوج الرجل الرجل أو يخادنه تحت سمع الحكومة وبصرها ، أي أن تكون هذه الحكومة سدومية ، ولكن لا لوط فيها . وهذه الكوارث يطرد بعضها بعضاً تمر بالليل والنهار ، من زلازل وحروب وأعاصير وبراكين ، وكأنها لا تعني شيئاً . ﴿ **فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً** ﴾[1] .

٢ ـ مرحلة الجدل :

ما إن بلّغ لوط رسالة ربه إلى أهل سدوم ، حتى ثار الجدل بينهم وبينه ، هو ينهاهم ويعظهم ، والقوم لم يسمعوا بمثل هذا من قبل ، ويقولون له : ما نظنك إلّا كاذباً على الله مفترياً ، ويهزأون به وبكراهته لعملهم المشين ، فيقولون : إنكم أناس طاهرون ! باستهزاء واحتقار ، ويقولون : آتنا بالعذاب إن كنت صادقاً .

قال أصدق القائلين :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۞ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۞ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[2].

---

(١) سورة الطارق : ١٧ .　　(٢) سورة الأعراف : ٨٠ ـ ٨٤ .

يؤكد هنا العزيز الحكيم على لسان نبيه لوط أن فاحشة قوم لوط ما سبقوا إليها ، وأنها دنيئة ابتدعوها وعليهم وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة ، ثم يوضحها ـ جل جلاله ـ حتى لا تلتبس على الناس ويختلفوا فيها ، فيقول : إنها إتيان الرجال كإتيان النساء إسرافاً وفسقاً وعدواناً على الفطرة السليمة ، ومحادَّة لله ورسله ، ومن حادَّ الله ورسوله فقد أذن بحرب من الله ، وهو ما حاق بهم .

فما كان جواب المسرفين الفاسقين ؟! أخرجوهم من قريتكم ! لماذا ؟! إنهم أناس يتطهرون ! إنهم أناس يترفعون عن هذه القذارة ، وهذه القرية قد قذرت كلها ، فلا بد أن يخرجوا منها .

وما كان مؤمناً بلوط إلاّ بناته ، حتى امرأته كانت كافرة وكانت تدل قومها على ضيوفه بإشارات بينهم . فأنجاه الله من القرية الفاسدة ، وأهله ، وبقيت امرأته فهلكت .

وهنا نتوقف قليلاً مع بعض قصة لوط ، فقد جاء في قصة إبراهيم أن لوطاً بن هاران أو هارون هو ابن أخي ابراهيم ، وأنه كان متزوجاً ابنة عمه ناحور ، ولكن المفسرين يقولون : إن امرأة لوط كانت على دين قومها (أي سدوم) وإنها كانت تتآمر على لوط مع قومها ، وإنه أُمِر ليلة إسرائه ألاّ يخبر زوجته فبقيت مع قومها ، ولعل تفسير هذا أن امرأة لوط السابقة هلكت وأنه تزوج من أهل سدوم لجوارهم ، فلما عاش بينهم حتى صار منهم أرسله الله إليهم ، ولذا فإن القرآن يقول : ﴿ وَلوطاً إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ ولأن الناموس الإلهي هو إرسال كل رسول إلى أمة هو منهم نسباً وأوسطهم حسباً ، كان استنتاجنا آنفاً . وتحتاج قصة لوط إلى مزيد من الدراسة التي ليست من شروط كتابنا ، إنما يجر الكلام بعضه بعضاً . وهذه قرية قوم لوط

أمطر الله عليها مطر السوء ، ولكل من يعمل عملهم سوء مثله ، وإن أمهل الله الفاسقين إلى حين .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۞ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۞ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۞ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۞ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(1).

لم يكن أحد من بني آدم يعرف هذا حتى نفث الشيطان هذه النفثة في أهل سدوم ، فشاعت فيهم فنسب عارها إليهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكانت سبباً في عذاب متميز بقيت آثاره ظاهرة . وكانوا مع فاحشة اللواط يقطعون السبيل ، ويأتون المنكرات في ناديهم علناً ، فقال لهم لوط : إن هذا يسخط ربكم وأمر فاحش لا يعرفه الناس وسينالكم العذاب ! قالوا : هات ما تدعيه ! تكذيباً

---

(1) سورة العنكبوت : ٢٨ ـ ٣٥ .

لنبي الله وتصغيراً لشأنه . فدعا الله ، والله يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ، فأجاب الله دعوته ، فأرسل الله ملائكة أوكل إليهم تدمير قوم لوط ، فشاء الله أن يبدأوا بإبراهيم عليه السلام ، فذبح لهم أبو الضيفان عجلاً حنذه على الجمر مبالغة في الإكرام ، فأخبروه أنهم رسل من الله أرسلوا ليدمروا قرية السوء ، فإذا إبراهيم الأوّاه الحليم يذعر ويقول : إن فيها لوطاً . قالوا : سننجيه وأهله إلاّ امرأته الكافرة المنافقة سيصيبها ما أصاب القوم إنها امرأة سوء لا تؤمن بالله ولا برسله ، وهكذا كان . ولكن قوم لوط لا زالوا مغترين بعدم وقوع ما وعدهم به لوط ، وظل ديدنهم ديدنهم ، فأشارت امرأة لوط بوصول الضيفان ، فهرع من في القرية من مفسديها ومجرميها إلى بيت لوط ، وهالهم ما رأوا من حسن ونظافة في ضيوف لوط عليه وعليهم سلام الله ، فبرقت عيونهم وهم يقولون للوط : أعطنا هؤلاء ! أما نهيناك قبل هذا عن استقدام مثل هؤلاء والتستر عليهم ؟! إنه أمر عصيب ! لقد استضعفوا نبي الله ! فلم يكتفوا بعدم اتباع هديه ووعظه ولكن تعدوا إلى أن يأخذوا ضيفه عنوة ، فيفضحوا الضيف والمضيّف .

ولكن الضيوف الكرام أسروا إلى لوط : إنا رسل ربك لن يصلوا إلينا ، وإنا جئنا لتدميرهم جزاء كفرهم وإجابة لدعوتك ، فإذا جاء السحر اسرِ بأهلك ولا تعلم امرأتك فإنه مصيبها ما يصيب القوم ، فإذا سمعتم حصب الحجارة ، وزلزلة القرية فلا يلتفت منكم أحد أبداً .

وهكذا سُرِيَ على القوم الظالمين ، ولكل ظالم مسرف قسط من مثل ذلك ، دنيا أو آخرة .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١).

وهكذا يتكرَّر تعنيف لوط لقومه ويذكر فلا متذكر ، يقول : يا قوم ألا تبصرون ما تأتون ؟! تتركون حسان النساء وما وهبهن الله من الطهر ثم تعقبون إلى مكان النَّجْوْ والسوأة القبيحة ، وكان الجواب هو الجواب ، أخرجوا آل لوط . وكل من يناصر الظالمين يلقى ما يلقون ، فهذه امرأة نبي كريم كان من المتوقع أن تكون أول المؤمنين ، كما فعلت خديجة رضي الله عنها ، وكما فعلت سارة من قبل، وغيرهما من النساء الصالحات ، آمنّ بالله ورسله وما يتلى في بيوتهن من كلام الله ، فدفعت زوجة لوط ثمن شذوذها ، وذاقت مع أهل ملتها مطر السوء ، مطر المُنذَرين الذين لم يبق لهم عذر.

فالحمد لله العادل الذي يجزي كلاً بما عمل ، وسلام على عباده الذين انتقاهم واختارهم اختياراً ليبلغوا رسالته ، والحمد لله الذي جعل العلماء ورثة الأنبياء ، يبثون في الناس ما أرسل به رسل الله ، ويعظونهم ويخوفونهم ، ويبينون لهم الخطأ من الصواب ، ولذا يقول محمد ﷺ : (لفقيه واحد أشد على الشيطان

---

(١) سورة النمل : ٥٤ ـ ٥٩ .

من ألف عابد)[1] .

ذلك أن الجهل من مراتع الشيطان يتصيد الناس فيه ، فإن استطاع تكفيرهم كان غرضه ، وإن لم يستطع جاءهم من طريق الترغيب فيما يحبه الله ، ثم يدخل عليهم من جهلهم ما يرونه عبادة ، وهو إما شرك أو محرم ، أو يؤدي إلى أحدهما .

٣ ـ مرحلة التدمير والهلاك :

ما زال لوط عليه السلام ، يعظ قومه ويبلغهم رسالة ربه ، وينكر عليهم أشد الانكار إتيانهم الفاحشة ، وقطع السبيل ، والمجاهرة بما يسخط المولى عز وجل ، فلما أيأسوا الله منهم حق عليهم ما يوعدون ، فقال تعالى :

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2] .

وهنا يؤكد الرب جل جلاله : إن لوطاً نبي مرسل ، وبهذا استحق أن ينجّى من العذاب الأليم ، وكذلك ينجي الله كل مؤمن ينكر ما عُمِل من سوء ، ويجهر بمعاداة أصحابه وهجرهم ، فإذا كان أهل هذا المؤمن من المؤمنين فإن على الله نجاتهم ، ولكن حتى أقرب قريب لهذا المؤمن لا يناله الأمن إذا كان كافراً ، أو منافقاً

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه .

(٢) سورة الصافات : ١٣٣ ـ ١٣٨ .

يخفي الكفر ويـوادّ أهله، ويظهر الإيمان ويشانىء أهله، ولا تخفى على الله خافية . وهكذا هذه العجوز التي قضت حياتها تعاشر وترافق نبياً مرسلاً ، لم تنفعها هذه العشرة الطويلة ، ولا شفعت لها رفقة الصالحين ، لأن الله كان أعلم بما في نفسها ، عالم السرائر.

ثم ينبه الله الناس إلى غفلتهم قائلاً : إنكم لتمـرون عليهم صباح مساء ، فما لكم لا تتعظون بما حدث لهم ؟! . صدق العليم الخبير ، لقد كنا نذهب إلى هذا البحر (البحر الميت) متنزهين ، نسبح فيه ونضحك ، وكأنه لم يكن يوماً مدينة قلبها الله ، وكأنا لا نعلم أن أهـل تلك المدينـة هم تحتنـا ، أسفلهم الله بمـا عصـوا وفجروا ، وإني أظن ظن اليقين - والناس على ما هم عليه اليوم - أن أعمالهم تتكرر على شاطىء هذا البحر المدينة المسخوطة ، وكأنّ لا من سمع ولا من رأى ، اللهم ألطف بعبادك ، ولا تأخـذ المؤمنين بجريرة الفاسقين ، إنك سميع عليم.

ولما جاء ملائكة العذاب كان مرورهم - كما قدمنا - بإبراهيم إجـلالاً وخصوصيـة من رب العالمين ، فسـألهم : مـا خبـركم ؟! قالوا : جئنا لتنفيذ أمر الله في القوم الفاسقين .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۞ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۞ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾(١).

---

(١) سورة الذاريات : ٣١ - ٣٧ .

أخبر المرسلون أنهم جاءوا لهلاك الفاسقين المنحرفين عن طبيعة البشر ، وعن الملة التي ارتضاها الله لعباده ، وهي أن يحصنوا فروجهم وقفاً على أزواجهم وما أحل الله ، لا إهدار ما وهب الله في القبائح والقذارات التي تأباها الأذواق السليمة ، والطبيعة البشرية ، بل وحتى الحيوانية ، حتى أحط الحيوانات (الحمير) ما عرف البشر ولا رأوا حماراً يأتي حماراً كما يأتي الأتان ! .

وأخبر إبراهيم بنوع السلاح الذي سيرسل على المعذَّبين ، إنه حجارة من طين ، ولكنه ليس كطيننا ، إنها مسومة ، أي معلمة مكتوب على كل واحد منها اسم المجرم الذي أرسل عليه ذلك الحجر ، إنها من صنع الله الذي أحسن كل شيء صنعاً ، إنهم حاربوا الله فحاربهم ، ومن يحاربه الله لا يفلت منه .

ثم وعدوا إبراهيم بأنهم سيخرجون من فيها ، أي القرية ، من المؤمنين، فما وجدوا فيها غير بيت لوط فأنجاه الله، وتركت أو ترك مكانها آية لمن يراها ويسمع ما حل بها ، فهل من معتبر ، إن الناس يمرون على مقلع سدوم البحيرة المنتنة صباح مساء ، فلا يذكرون ولا يتعظون ، ولا يقولون (سبحان الذي فعل هذا إنه على كل شيء قدير) . فالذين يخافون نقمة الله يذكرون ما فعل بمن كفر واستكبر وظلم وأسرف ، وهذه آية تبقى أبد الدهر علامة انتقام الله من المارقين السافلين خُلُقاً ، السافلين عملاً ، المنحطين نفوساً ، الآمنين مكر الله ، فجاءهم ما يستأهلون ، وسيجيء السائرين على سننهم المتخلقين بِخُلقهم المنحطين انحطاطهم ، ولا عدوان إلّا على الظالمين .

وخرج المكرمون من عند إبراهيم عامدين إلى سدوم ، والمقدم على نبي مكرم هو لوط ، ولما رأى لوط هؤلاء الفتية الحسان

ضاق بهم ذرعاً وقال : ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ ذلك لمعرفته نحس قومه وولعهم بالخبائث ، وأنه غير قادر على حماية ضيفه من هذا المجتمع الأشر ، ولكن هذا الضيف يا نبي الله ليس كبقية الأضياف ! إنه ضيف جاء ليقرِي لا ليُقْرَى ، جاء يجازي الكافرين ما أقروا قبلهم من ضيوف ومغلوبين ، جاء بالفرقان المبين ، جاء ليغير ما بهم حتى الأرض التي يمشون عليها.

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۞ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۞ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۞ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۞ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۞ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾(١).

---

(١) سورة هود : ٧٧ ـ ٨٣ .

إن لوطاً يعرف خلق قومه ، ويعرف أن غيرهم من الأمم لا يعرفون هذه الفحشاء ، وها هم جاءوا بإشارة من عجوز إبليس ، جاءوا يهرعون سراعاً لا وقت ليضيع ، فماذا يقول لضيفه ؟! إنها الفضيحة ، إنها الكارثة . ويأتي الله بالفرج ـ بعد أن رفض قوم لوط حتى البنات الطاهرات المؤمنات ، اللاتي بذلهن أبوهن على ما به من شح على أعراضهن ، بذلهن دون ضيفه ، لعل الله يستر هذه الحادثة فتمر بسرعة ، لقد كاد المبطلون أن يخزوا لوطاً ويسودوا وجهه ، وليس لهم ذلك ، فالله مانع أولياءه ، ويتحرق لوط ويتأسف أن ليست له قوة من زند وولد ، ولا ركن شديد من عشيرة ، إذاً لأشفى صدره منهم ، ولمنع ضيفه وبناته ، وعاد الخزي على الذين لا يبصرون .

وجاء الفرج من صاحب الفرج ، فإذا الضيوف يقولون للوط : لا تبتئس يا لوط فنحن لسنا كبقية الضيوف ، إن هؤلاء أذل وأخزى من أن تصل أيديهم إلينا ، إنما نحن الذين ستمتد أيدينا إليهم ، ومعهم امرأتك الكافرة ، فإذا جاء وقت السحر فاسرِ بأهلك ، ولا يلتفت منكم أحد الى الوراء ، إن موعد هؤلاء الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟! أليس الصبح هو الفترة التي تلي السحر ، فليس بين خروجك ناجياً بأمر الله ، وتدميرهم إلاّ ما لا يشعرون به ، وهكذا حاق بالمسرفين ما كانوا يمكرون ، فقد تقدم أولئك الضيوف الذين كان لوط يخاف عليهم أهل سدوم ، تقدموا إلى القرية فاقتلعوها على أجنحتهم بعد أن أمطرت من السماء مطراً لم يبقِ على ظهرها متحركاً ، فرفعوها حتى سمعت ملائكة السماء نباح كلابهم ـ كما جاء في الحديث ـ وفي أوثق الروايات أن جبريل هو الذي نزل على قوم لوط ، وكانت لهم خمس قرى : سدوم أكبرها ، وصعبة ،

وصعود ، وغمرة ، ودوحاء[1] ، وتعديد القرى من أقوال الاخباريين ، ولكنه لا يزيد الموضوع ولا ينقصه ، والخلاصة أن جبريل صعد بها حتى سمع الملائكة في السماء الدنيا أصوات الناس ونباح الكلاب ، فقلبها على وجهها ، فصار عاليها سافلها ، ثم أمطرت حجارة من سجيل ، فدمدم عليها ، ثم أن الحجارة المسومة تعقبت شذاذ القوم أينما ذهبوا أي الذين لم يكونوا في القرية آن سخطها ، فكانت تقذف على الرجل أينما وجد فترديه قتيلاً ، فسبحان الذي يمهل ولا يهمل .

ويأتي القرآن يأمرنا أو يطلب منا أن ننظر ، ما حل بدار المنذَرين ، بعدما أمطر عليهم ما يستحقون .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[2] .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۞ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۞ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۞ قَالُواْ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ۞ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۞ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۞ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي

---

(١) هذه أسماء عربية ، مما يدل على أن سكانها كانوا عرباً ، قبل أن تكون اليهود أمة .

(٢) سورة الأعراف : ٨٤ .

فَلَا تَفْضَحُونِ ۞ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۞ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ۞ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۞ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۞ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾(١).

وهكذا تتكرر الروايات الإلهية ، وتعاد القصة تأكيداً على ما حدث لقوم لوط ، فلو ذكرت مرة واحدة لربما ارتـاب المبطلون ، ولكن الله أكدها مراراً ، وصرح بها نبيه وحذر قومه من عملهم وعمل قوم عاد وثمود ، وغيرهم من الكافرين .

لقد قُطِع دابر قوم لوط كما قُطِع دابر من كفر قبلهم ، تنوعت الوسائل ، والنتيجة هلاك مدمر يدل على قدرة القادر ونصرة رسله والمؤمنين ، لعمرك أنهم كانـوا في سكرتهم يعمهون ، ولعمرك أن كثيراً من الناس اليوم في نفس السكرة والغفلة ، إلّا من هدى الله وجعل له بصراً وبصيرة . ويتوعد الله الذين يمرون على هذه القرية المسخـوطة والمخسـوف بأهلهـا ولا يأخـذون من العبرة اعتبـاراً ، ويصفهم بأنهم لا يؤمنون بالبعث والنشور ، ولو كانوا كذلك لارعـوَوْا وتفكروا ، من عمل هذا ؟! أوليس الذي عمله بقادر على أن يعمل مثله بمن عمل مثل عمل هؤلاء ؟! بلى .

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾(٢).

---

(١) سورة الحجر : ٥٧ ـ ٧٤ .
(٢) سورة الفرقان : ٤٠ .

أيها المؤمنون ، يا عباد الله ، لقد غبرت قوم لوط ، وغبر قبلها كثيرون ، ولا زالت الأمم تعصى ، ولا زال الله ـ جل جلاله ـ يعاقب ويعذب ، يجازي ويهلك ، ولو كان القرآن لا زال ينزل لقرأنا كثيراً ، ولقص علينا أخبار أمم أُهلكت بما عملت أيديها وعقولها بعد موت محمد ﷺ ، وما هذه الزلازل والأعاصير والبراكين والحروب التي يسلط الله بها القوي على الضعيف إلّا من ذلك العذاب .

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾(١).

وهذا إخبار من الله أن تلك القرية الآمنة التي يأتيها رزقها سحّاً رخاء ، ما كان ليذيقها الله لباس الجوع والخوف لو لم تعص المنعم المتفضل ، الرازق المؤمّن .

وهذا ينطبق تمام الانطباق على تلك الأمم التي أمدها الله بالغنى الفاحش ، والثروة المتدفقة ، ثم ـ فجأة ـ تنقض عليها إحدى القوى المفترسة ، فتخرب بنيتها ، وتضعف قوتها ، وتذلها إذلال قوم سدوم لضحاياهم . فسبحان المعز المذل ، المحيي المميت .

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾(٢).

---

(١) سورة النحل : ١١٢ .

(٢) سورة الأنبياء : ٧٤ .

قـوم شعيب

وهم بنو مَدْين بن إبراهيم الخليل عليـه السلام ، وقـد تقدم نسبه ، فغلب على قوم شعيب اسم أبيهم ، فقيل (مَدْين) وتكرر هذا الاسم في القرآن ولا يكادون يعرفون إلاّ به ، وقـد ذكروا في القرآن الكريم باسم (أصحاب الأيكـة) كما ستـراه في النصوص المقبلة .

كانت أرض مدين تلك المنطقة الواقعة غرب مدينـة تبوك ، وجنوب مدينة العقبة ، على الضفة الشرقية لخليج العقبة ، ويقول النسابون : كان لمدين خمسة من الولد من بنت لوط عليه السلام ، وأنهم انتشروا في تلك الديار ، فصاروا قبيلة كبرى .

ولم تشذ مدين عن الأمم التي سبقتها ممن أفاء الله عليها القوة والعدد والثروة ، فغيرت ملة إبراهيم عليـه السلام ، وكفـرت أنعم الخـالق المعبود ، فعبـدت الأصنام ، وطفَّفت المكيـال ، وبخسوا الناس حقهم ، فأرسل الله إليهم أخاهم شعيباً ، فوعظهم وأنذرهم ، فاستحبُّوا العمى على الهدى ، وأصروا على الكفر ، وجادلوا نبيهم وسفهوا رأيه وطغوا وتكبروا ، فأرسل الله عليهم عذاب يوم الظُّلة ، فأُهلكوا بما طغوا وجحدوا ، ونجَّى الله شعيباً والذين آمنوا معـه .

وفي بلدة البدع[1] وهي قرية تتوسط المنطقة التي حددناها ، توجد بئر يزعم أهل تلك الناحية أنها بئر نبي الله شعيب ، وأنهم يتوارثون ذلك .

وهذه البئر وقد رأيتها ، يظهر ـ والله أعلم ـ أنها البئر التي أسقى منها موسى عليه السلام لبنات شعيب ، والقصة مشهورة في القرآن .

وقد قص الله علينا ما أحدثته مدين في آيات كثيرة ، هذا مجملها :

قال تعالى ، وهو يعدد الأمم التي أرسل إليها الرسل فعصت فأُهلِكت :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۞ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[2].

وهكذا نرى أن شعيباً ـ عليه السلام ـ أول ما دعا قومه قال (اعبدوا الله) فهذه دعوة كل نبي ، وكل مصلح وعالم : (اعبدوا الله) ، فإذا وجد منهم تجاوباً دعاهم إلى ما بعد ذلك مما يصلح

---

(١) راجع معجم معالم الحجاز ، مادة البدع .

(٢) سورة هود : ٨٤ ـ ٨٦ .

الأمة . وكانت في قوم شعيب سوأة ابتدعوها لم تذكر في الأمم التي قبلهم ، ألا وهي إنقاص المكيال والميزان ، يطفِّفون إذا باعوا ، و ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾(١) ويكملون المكيال والميزان إذا اشتروا . فنهاهم نبيهم عن ذلك ، ونبّه إلى خصال ، منها :

أولاً - إنهم بخير ، أي أغنياء ، فلماذا هذا البخس ؟

وثانياً - إن هذا البخس يوجب غضب الله ، وغضبه يوجب عذابه الشديد ، (محيط) بهم لا فكاك منه .

وثالثاً - إنهم إلى انقاصهم المكيال والميزان ، يفسدون في الأرض ، فنهاهم شعيب عن هذا الفساد .

يقول شعيب عليه السلام ، أن يبقي الله عليكم هذه النعمة ، والثروة خير لكم ، فآمنوا بربكم وأطيعوا رسل الله .

فماذا كان جواب قومه على هذا النصح السديد ؟!

﴿ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾(٢).

استهزؤا بنبيهم ، أنت تصلي يا شعيب ، فهل صلاتك هذه وصلت بك إلى أن تطلب منا ترك ما ورثنا عن الآباء والأجداد من عبادة آلهة تعاقبوا عليها ؟! وتأمرك بأن لا نفعل بأموالنا ما نريد من تطفيف على المشتري واستيفاء من البائع ؟! ما رأينا أرجح منك عقلاً

---

(١) سورة المطففين : ١ .

(٢) سورة هود : ٨٧ .

وأفضل تدبيراً وترشيداً ! قالوها استهزاء بنبي يبلغ رسالة ربه ، فأي الفريقين أولى بالحلم والرشد ؟

قال شعيب ـ في حلم وتؤدة :

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۞ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۞ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾(١) .

يقول شعيب : أرأيتم إن كنت على طريقة واضحة من الله ، وإن الله قد رزقني علماً واختارني رسولاً ، ما يضيركم من ذلك ؟ . وما خالفتكم إلى ما نهيتكم عنه ، وما أردت إلاّ إصلاحكم ، وحملكم على محجة الله الواضحة ، لا عبادة إلاّ لله ، ولا ضار ولا نافع إلاّ إياه ، أمري إلى الله واتكالي عليه وإليه إنابتي ، واذكروا نعم الله عليكم وتفكروا فيما خلق ربكم من حولكم تهتدوا .

ثم يوضح شعيب لقومه ، فيقول : أنا أعلم أنكم تتعمدون شقاقي ، أي معاكستي وعصيان ما أمر به ، فلا يدفعكم ذلك إلى ما يغضب الله فيصيبكم ما أصاب الأمم التي كفرت قبلكم ، فقد جاءكم خبر قوم نوح وقوم هود وقوم صالح ، وبالأمس القريب خسف الله

---

(١) سورة هود : ٨٨ ـ ٩٠ .

بقوم لوط ، وأنتم تعرفون هذا جيداً لأن لوطاً كان أحد أجدادكم ، وقصته تروى لكم ، يتناقلها الأحفاد عن الأجداد . ثم يقول شعيب : لا أعرف لكم طريقاً ينجيكم مما أصاب من كان قبلكم إلّا التوبة إلى الله واتباع الرسول ، والاستغفار ، فاستغفروا الله تجدوه غفوراً رحيماً ودوداً ، أي محباً لعباده ، لا يرضى لهم الكفر .

فما كان جواب مدين ؟!

يقول العزيز العليم ـ مخبراً نبيه بما فعلت تلك الأمم ـ :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾[1].

يقول الله سبحانه وتعالى : يا محمد ! إن يكذب قومك فقد كذبت قبلهم أمم كثيرة من مثل ما ذكر آنفاً ، فكيف رأيت ما حل بهم بعد الوعيد ، وبعد تكذيب المُنْذِرين المُرسَلين ؟!

وأصحاب الأيكة : هم قوم شعيب ، فقد كانت لهم غابة أو غابات من الأشجار ، وهي تسمى في اللغة أيكة .

كل هذه الأمم وغيرها عصت أمر ربها ، فدمرها تدميراً ، وجعل منها آيات وأحاديث تروى ، وآثاراً تشاهد ، عبرة للمعتبرين ، وتذكرة لأولي النهى .

فهل تلك العبر موقوفة عليهم ، مخصوصة لهم ؟ كلا ، بل هي لكل من يعصى أمر الله ، في كل مكان وكل زمان ، وما هذه

---

(١) سورة قٓ : ١٢ ـ ١٤ .

الفتن المتلاحقة ، والزلازل والخسوف التي يتحدث عنها كل يوم إلّا نماذج يخوف الله بها العباد ، لعلهم يتذكرون ، وما هذه القوى المفترسة التي تنقض على الأمم المغلوبة في كثير من أصقاع الدنيا إلّا نذر من الله ، لعل الناس إلى ربهم يرجعون ، ويعدلون ويتوبون، ويضربون على أيدي المفسدين . ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾(١) .

نعم ، لا يغير الله ما بأمة طائعة آمنة يأتيها رزقها رغداً حتى تعصى ، وتكفر أنعم الله ، فتشيع الفساد ، وتهمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتحكم بغير ما أنزل الله المشرع لعباده المنزل لهم الأحكام والشرائع على قلوب الرسل .

ولا يغير ربك ما بأمة من ذل وخزي وجوع واستعباد حتى يغيروا من أعمالهم ، فيطيعوا الله ، ويعدلوا في عباده ، وينبذوا الفساد ، ويحكموا كتاب الله ، حينئذ ـ فقط ـ سيغير الله خوفهم أمناً، وذلهم عزاً ، وخزيهم شرفاً ومجداً ، فهل من متدبر ؟!

ولكن قوم شعيب ـ عليه السلام ـ استعصوا ، وتمادوا في غيهم ، فصدوا المؤمنين عن الإيمان ، أسرفوا في بخس الكيل والوزن ، وأعطوا نبيهم الأذن الصماء .

قال أصدق القائلين :

﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟**

---

(١) سورة الرعد : ١١ .

ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾(١).

ويكرر الله خبر إرسال شعيب إلى مدين للتأكيد والترسيخ في الأذهان ، وليعلم أن أول دعوته ودعوة كل نبي وداعية ، هي : اعبدوا الله ! ثم التأكيد على أن مقدرات هذا الإنسان كلها بيد الله ، وما دام هذا مسلم به ففيم التمادي في الغي ؟ وما ظلمكم الناس في المكيال والميزان وتزعمون أن لكم الحق في ذلك لأنها أموالكم ؟ فإذا كنتم مؤمنين فإن سبيل المؤمنين الإصلاح لا الإفساد ، فأصلحوا إن كنتم ترجون الله واليوم الآخر .

وما قعودكم على طرق الناس تتوعدون من آمن بالله ، تريدون صرفهم عن عبادة المولى ، تعوجون سبيل الله وهي مستقيمة ليلها كنهارها .

فإذا اختلفتم في إيمانكم وتصديقكم بما أرسلت به ، فدعوا كلٌّ يسير فيما اختار حتى يحكم الله بين الناس ، أما أن تكفروا وترغموا الناس على الكفر فهذا هو الجور ، وهذا عكس ما ارتضاه

---

(١) الأعراف : ٨٥ ـ ٨٧ .

المعبود لعباده ، فاتقوا الله ، عباد الله ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وأنتم تعلمون .

فما قال قوم شعيب بعد تلك الحجج الناصعة ، والآيات الباهرة ؟!

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[1].

قالوا : دعك من هذه الحجج ، وهذه الفصاحة وذكر الله وحده دون آلهتنا ، فإن لم تتركوا هذا الدين وتعودوا مع قومكم تعبدون ما يعبدون وتصنعون ما يصنعون لتخرجنّ من هذه القرية .

﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾[2] حتى في عبادة ربنا ليست لنا حرية ؟ إن هذا هو الظلم ، ولا يفلح الظالمون .

تكرهوننا على عبادة غير الله ، ونحن ندعوكم لعبادة خالق السموات والأرض وما بينهما ؟! ألا تعقلون ؟ ألا ترشدون ؟ .

ثم يقول نبي الله شعيب :

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[3].

---

(١) و (٢) سورة الأعراف : ٨٨ .
(٣) سورة الأعراف : ٨٩ .

أي هذا افتراء على الله ، أبعد النبوة والإيمـان نعود في ملة الجاهلية ؟ هي رِدّة إذاً ، أبعد أن منّ الله علينا ونجانا من الكفر نعود في ملتكم ؟! هذا لن يكون أبداً ، إلّا أن تكون مشيئة من الله سبقت في الكتاب ، فعلم الله وسع كل شيء ، ولكن عافية الله لنا أوسع ، وعليه اعتمادنا ، اللّهم أحكم بيننا وبين هؤلاء الجاحدين عبادتك ، المتسلطين على عبادك ، فأنت أعدل الحاكمين . فيعود الجدل يأخذ مساراً إعلامياً مضلّلاً ، يقول الذين لا يؤمنون بالله يا قوم ! إن من يتبع شعيباً يكون من الخاسرين ، ألا ترون أنه لا ثروة له كثروتنا ، ولا أتباع لـه غيـر الفقـراء والضعفـاء ؟ ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾(١) .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾(٢) .

فما جزاء مثل هؤلاء الذين يجحدون نعم الله ، ويسرفون فيما أتاهم ، ويصدون عن سبيل الله القويم ؟

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة الأنبياء : ٣ .

(٢) سورة الأعراف : ٩٠ .

(٣) سورة الأعراف : ٩١ ـ ٩٣ .

وبعد أن استهزأوا بشعيب والمؤمنين أخذهم الله بالعذاب، فهذا يوم الظُّلة : سحابة أظلتهم وأحرقتهم ، وهذه الرجفة ، وتلك الصيحة ، كل هذه توالت عليهم ، فأصبحوا في دارهم جثثاً ملقاة لا حراك فيها . وبعد أن وعدوا المؤمنين الذين اتبعوا شعيباً بالخسران ، أصبحوا هم الأخسرين ، البائرة أعمالهم الحابطة مساعيهم ، فبعداً لهم ولمن سار على نهجهم وتقفّى خطاهم .

يقول الله : هؤلاء الذين كذبوا شعيباً ، وكانوا أهل ثروة وجاه ، ما هي إلّا ساعة فكأنهم لم يكونوا من عمار تلك الديار وأهل الثروة فيها ، فكانت خسارتهم أسوأ مما كانوا يعدون به أتباع شعيب، وبدلاً من أن يخرجوا نبي الله والمؤمنين أحياء ، أخرجهم الله منها جثثاً كأنهم خشب مسندة .

ونجّى الله شعيباً والمؤمنين ، ونظر شعيب إلى آثار عاقبة عتوهم وخروجهم على أمر ربهم فحزّ في نفسه ، أليسوا قومه وعشيرته ؟! يريد لهم الخير ويريدون له الشر ، فقال لهم : لقد بذلت لكم كل ما في وسعي نصحاً وتبليغاً ، فلقيت منكم ما لقيت ، فكيف يأخذني الحزن على الكافرين ؟ وكأن هؤلاء القوم لم يسمعوا بمن سبقهم ممن دمر تدميراً ، وكأنا ونحن نتلو انباءهم بعدهم نظن أن ذلك مقصور عليهم ، وأننا في مأمن من غضب الله وعقابه في الدنيا والآخرة .

يقول رب العزة :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ

﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[1].

أما سمعوا بما أصاب قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ؟ ألم يعلموا يا محمد أن هـذه الأمم كلها قد أُهلكت بعصيان أوامر ربها ، وتكذيب رسلهم ، والمؤتفكات هم قوم لوط الذين أتوا بإفك لم يأتِ به أحد قبلهم ، يحذر الله أمة محمد ﷺ ، من اتباع خطواتهم ، فانه مصيبهم ما أصاب الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والجور ، والتمرد على أوامر الله ، ومخالفة رسلهم إلى ما نهوهم عنه ، فكان الله لهم بالمرصاد ، فأغرق بعضهم ، وأهلك بعضهم بأسباب تتناسب وأعمالهم ، كما تقدم في فصول هذا الكتاب .

عاقبة الظالمين :

ويقول الله عز وجل :

﴿ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾[2].

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، وهم مدين ، فقد ظلموا ، ظلموا بالاشراك بالله ، ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾[3] وظلموا بتكذيبهم المرسلين ، وجحودهم أن الله أرسل شعيباً نبياً رسولاً ، ولم يعتبروا بمن سبقهم من الأمم المبادة المُهلَّكة بالكفر والتكذيب ،

---

(1) سورة التوبة : ٧٠ .
(2) سورة الحجر : ٧٨ ـ ٧٩ .
(3) سورة لقمان : ١٣ .

وأصحاب الأيكة ظالمون بتلاعبهم بالمكيال والميزان ، أخذاً وعطاء ، وظالمون بمبالطهم بأن لهم في أموالهم ما يشاءون ، دون النظر في حقوق الآخرين .

فما كانت النتيجة ؟ إن الله يمهل ولا يهمل ، أمهلهم ومتعهم ، وأرسل من يبين لهم الحلال والحرام ، فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، فانتقم منهم العزيز الجبار ، فاصبحوا في دارهم جاثمين ، جثثاً لا تتحرك ﴿ **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾(١) .

لا جرم أن كل من عمل عملهم من هذه الأمة ، ووافق هواه هواهم سيصيبه ما أصابهم، وإن اختلف نوع العذاب ، وإن طال الإمهال ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾(٢) .

فالدراك الدراك أيها المتأخرون ، فإنكم لستم معجزين في الأرض ، فلا تظلموا أنفسكم وكتاب الله بين ظهرانيكم، والواعظون يعظون والمرشدون يرشدون ، والعلماء يفتون ، فأين تذهبون ؟ ما كان طلب الرسل من الأمم ؟

ما أرسل الله رسولاً إلاّ كان أول دعوة يدعو بها هي (اعبدوا الله وحده ولا تعثوا في الأرض مفسدين) . لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها . لا أسألكم عليه من أجر . أذكروا ما حل بمن قبلكم . هذه أصنام لا تسمع فتجيب ، ولا ترى من يعبدها ، ولا بيدها حل ولا عقد . هذا هو منهج الرسل ، وورثتهم العلماء ، والدعاة والوعاظ، وكل العاملين على إصلاح البشر .

---

(١) سورة الصافات : ١٨٠ .

(٢) سورة الفجر : ١٤ .

ولكن الأمم تعصى ، وتطغى ، وتكفر أنعم الله ، وتجحد ، وتكذِّب الرسل ، وتستهين بالدعاة والمصلحين ، فويل لهم مما يكسبون ، إلا عباد الله المُخلصين ، الذين يقولون ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[1].

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

فهذه شهادة من خير الشاهدين ، أن مدين (أصحاب الأيكة) كذبوا الرسل ، وقالوا : لستم مرسلين من الله ، ومتى كان ذلك ؟ حين قال نبيهم : خافوا الله ، إني مرسل لكم ، أمين على ما كلفت به ، أبين لكم ما كلفني به الله وأمرني أن أبلغه لكم ، أن اعبدوا الله وحده ، وأطيعوا رسولكم يهدكم إلى سبيل الرشاد ، ثم يؤكد لهم أنه لا يطمع في شيء من أموالهم إنما هو أمر الله ، وتبليغ أمين . فما بالكم لا توفون الكيل ، وإذا وزنتم للناس طففتم (زنوا بالقسطاس المستقيم) الموفي الوافي ، ولا تأكلوا أموال الناس باطلاً (تبخسون الناس أشياءهم) ، وتعيشون في الأرض فساداً بطراً واستكباراً .

يقول شعيب عليه السلام :

﴿ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ

---

(١) سورة البقرة : ٢٠١ .
(٢) سورة الشعراء : ١٧٦ - ١٨٠ .

ٱلْمُسْتَقِيمِ ۞ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1].

يا قوم ألا تخافون الذي خلقكم والأمم السابقة (الجبلّة الأولين) ، فاتقوا الله ، وتفكروا في ملكوت السماء والأرض ، وارغبوا فيما عنده لا ما تأخذونه قسراً ممن لا حول لهم ولا طول ، تنقصون عليهم إذا بعتم عليهم ، وتستوفون بل وتزيدون إذا اشتريتم منهم ! ما هذا الحكم الجائر ؟ اتظنون الله غافلاً عما تعملون ، وأنه غير قادر على إنصاف المظلوم من الظالم ؟ إنكم قوم تجهلون . فما كان جواب قومه ؟!

قالوا : إنك مسحور يا شعيب ، فمن أين لك هذا الكلام وأنت بشر مثلنا ، إن غالب ظننا إنك كاذب .

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۞ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2].

فكان برهانهم في الجدل هو الذي أحاط بهم ، وعجل قطّهم ، إذ قالوا : لست مرسلاً ، أنت كاذب ، إذا كنت صادقاً

---

(١) سورة الشعراء : ١٨١ ـ ١٨٤ .

(٢) سورة الشعراء : ١٨٥ ـ ١٩٠ .

فاسقط علينا كسفاً من السماء ، تحدياً وتعجيزاً لنبيهم ، وكأنهم يقولون : لن يسقط ويظهر كذبك وتفضح بين الناس !

ولكن الذي بالمرصاد هو الذي أرسل رسله ، ولن يرضى أن يكذبوا أبداً ، فجاءتهم ظلة من السماء ، ولكنها ظلة عذاب ، فقد قُضي الأمر ، وحاق بالماكرين مكرهم ، ونال المكذبون جزاء تكذيب رسل الله ، وأوفَى الله لهم الكيل جزاء ما بخسوا الناس .

وقفة اعتبار :

إنك إذا قارنت هؤلاء الكافرين الذين يجحدون رسالات الله ويكذبون رسله ، إذا قارنت أفعالهم بأفعال بعض هذه الأمة ، تكاد تجد لأولئك من العذر ما لا تجد لهؤلاء ، أقول : تكاد مع أنه لا عذر لكافر أو مشرك أو ظالم ، ولكن أولئك جحدوا ففسقوا وظلموا على كفر بواح صريح ، وهؤلاء يؤمنون بالله ويصدقون الأنبياء ، ويعلمون ما حلل الله وما حرم ، ومع هذا يأكلون الربا ويستحلون الفروج ، ويجورون في الحكم ، ويعطلون شرائع الله ، ويشربون الخمر ، ولا يوفون الدين إذا تداينوا ، فأي عذر لهؤلاء ؟! وما الفرق بين من يجحد ويستبيح على جحود ، وبين من يؤمن ويستبيح على إيمان ؟! أليست الحجة على هذا أقوى وأشد ؟ أليس عقاب عالم مرتكب جريمة أشد من عقاب جاهل مرتكب نفس الجريمة ؟!

وعالم بعلمه لم يعملن   معذب من قبل عباد الوثن

ملخص سيرة نبي الله شعيب ، عليه السلام :

قال النسابون : هو شعيب بن نويل بن رعويل بن عيفا بن مدين بن إبراهيم عليه السلام ، وقيل : بل شعيب بن نويب بن

أخزم بن مدين ، وقيل : شعيب بن عيفا ، ويقال : ابن ضيفون . وفي كل الأقوال ينتهي نسبه إلى مدين بن إبراهيم .

وكان مدين قد تزوج ابنة لوط عليه السلام ، فأنجب منها خمسة من الولد ، ومن هؤلاء الخمسة تألفت قبيلة مدين .

وهذا العد فيه نظر، إذ أنه يعطينا أن ما بين شعيب ومدين لا يزيد عن مائتي سنة ، وهي مدة لا تتكون فيها قبيلة كبيرة كمدين ، إذ أن بين ظهرانينا قبائل مر على أجدادهم الأُول أربع مائة سنة ، ولا يزال كثير منها لا يزيد عن ألف شخص بين رجل وامرأة وطفل ، وهذا في عرف العرب لا يعطي هذا الفخذ استقلاله كقبيلة ذات سيادة على نفسها وأرضها .

وقد يكون قد لمّت على مدين فلول ومهاجرة من أصقاع أخر ، فغلب عليها اسم القبيلة الرأس . وفي قصص الأنبياء لابن كثير : عن وهب بن منبه أنه قال : شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم إحراقه بالنار ، وهاجرا معه إلى الشام ، فزوجهما بنتي لوط عليه السلام . وفي هذا نظر . وقد رُوي عن أبي ذر من صحيح ابن حبان ، أنه ﷺ ، قال : (إن من الرسل أربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك ، يا أبا ذر)[1] .

وعن ابن عباس قال[2] : كان رسول ﷺ ، إذا ذَكَر شعيباً قال : (ذاك خطيب الأنبياء) والخلاف في نسب شعيب متشعب وطويل ، وجاء في قصص الأنبياء المشار إليه سابقاً :

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم « مدين » التي هي

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) قصص الأنبياء : ١٧٣ .

قريبة من أرض معان من أطراف الشام ، مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قريبة ، ومدين مدينة عرفت بالقبلية وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل .

وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل بن يشجن ، ذكره ابن إسحاق .

قال : ويقال له بالسريانية يترون ، وفي هذا نظر . ويقال شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب .

وقيل : إن إبراهيم عليه السلام ، كان قد تزوج (قنطورا) بعد وفاة سارة ، فولدت له ستة من الولد ، كان أحدهم مدين .

وقد كفرت مدين ، وغيَّرت ملة إبراهيم ، وفسقت وعصت كما تقدم معك من الآيات ، فأرسل الله إليهم شعيباً من أنفسهم نبياً رسولا ، فكذبوه وحقروه ، بل اضطهدوه ، كما في القصة التالية : جاء فيما قص الله علينا من قصة موسى عليه السلام ، فقال :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾[1].

هذه القصة ترينا أن موسى خرج من مصر بعدما أحدث ، فأمعن في الصحراء حتى ورد ماء مدين ، وهي بئر لا زالت معروفة حسب زعم المساعيد ، سكان البدع[2] ، وهناك وجد بنتي شعيب

---

(١) سورة القصص : ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) راجع إن شئت معجم قبائل الحجاز .

عليه السلام ، وقد اقصيتا عن الماء ، وهما تنتظران صدور أهل الأنعام عن الماء لتسقيا ، وهذا دليل عنت القوم وتضييقهم على نبي الله شعيب . وقد جاء في بعض تفاسير هذه القصة أن رعاء الماشية كانوا إذا ارتووا أغلقوا البئر بطبق من الصخر لا يزحزحه الاّ القوي ، ولذا قالت بنت شعيب : ﴿ **القَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾ .

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۞ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ۞ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾(١).

وفي هـذه القصة نجد عظات وشيماً هي أخلاق الرسل ومنهجهم في الحياة .

فموسى كان أميناً ، قيل إنه لم يلتفت إلى البنتين ، ولم يحدثهما إلاّ بقدر الاستفهام ، لذا مدحته بنت نبي الله شعيب ، بأنه

(١) سورة القصص : ٢٤ ـ ٢٨ .

كان قوياً في عمله الخيري ، سقياه لهم ، وربما تومىء إلى الصخرة التي كانوا يطبقونها على البئر ، وأنه كان أميناً معهما .

ثم ترى دعاء موسى ربه ، وهي صفة المؤمنين يلجأون إلى الله وقت الشدة ، فلا شريك لله ، ولا ولي يطمع المؤمن في نفعه ، إنما آله واحد .

فجاءت إجابة الدعاء حيث رزق من فوره أهلاً وعشيرة ، فإذا هو كأنه بين ظهراني أهله . ثم خُلق بنت شعيب الحيي ﴿ **تَمْشِي عَلَى اسْتَحْيَاءٌ** ﴾ لا تبرج ولا ضحك ولا مزح ، إنما خَفَر وستر ، وكلام بلا خضوع : ﴿ **أَبِي يَدْعُوكَ** ﴾ هذه أخلاق العفائف .

ثم استخبار شعيب من ضيفه : من أنت ومن أين أتيت وما قصتك ؟! هكذا يريد أن يتأكد من هذا الوافد ، ثم تتقدم إحدى بنتي شعيب طالبة من أبيها استئجار هذا الشاب القوي الأمين ، وذلك لعلمها أن أباها يثق فيها ، ويعرف أن هذا الطلب المجرد من الهوى والشبه ، هو لمصلحة هذه الأسرة التي أصبحت محاصرة ومؤذاة ، ولا شك أن موسى عليه السلام غيّر من كيانها ، ورفع من شأنها .

ثم انظر إلى أخلاق شعيب ، إنه كان المؤمن الهيّن الليّن ، فهو أولاً لم ينزر الفتاة، ولم يقل: ما شأن النساء بأعمال الرجال ، إنما وافق على الطلب ، وعرض على موسى عقداً سهلاً مشرفاً : لا أريد أن تكون عندي مجرد خادم إنما تكون صهراً مكرماً على أن تخدم رجلاً أصبح في حكم أبيك، أزوجك احدى ابنتي، هذا من شعيب منتهى اللباقة الأبوية واللطف، شاب وفتاتان وشيخ ، لو بقي هذا الشاب أجنبياً عن البنات ما عسى أن يحدث ، إذاً الطريقة المثلى أن يكون صهراً من أهل البيت ، زواجاً حلالاً ميسراً ، بشروط ميسرة ، يقول شعيب : أريد أن تخدمني عشر سنين ، ولكن

إذا لم تستطع إلاّ ثمان سنين فلا بأس ، لم يصرّ على العشر إنما جعل اكمال المدة تبرعاً وتطوعاً من صهره ، ولم يكن موسى عليه السلام بالمماكس ، بل وافق بلا نزاع .

أسرة نظر الله إليها فرباها لتكون منبعاً من منابع الهدى . ولا يمر معك عرض شعيب عليه السلام دون أن تتأمله باعجاب كبير ، ألا ترى كيف قدم ما يرغّب في العمل قبل عرض العمل ، فقال : أريد أن أزوجك ، فأول ما يتبادر من العرض أنه خاطب لبنته لا طالب أجير ، فإذا أنس المخاطب لأول الكلام أرسل تمام العرض ، فلا هوان على هذا ولا هذا .

نجاة شعيب :

وفيما يبدو من سياق قصة قوم شعيب أن شعيباً دأب على دعوة الحق ، وأن موسى عاش ما عاش مع شعيب ، ثم فصل بأهله ومدين لا زالت بخير ونعيم ، ثم حق عليهم القول فأبادهم الله ـ كما تقدم ـ ونجّى الله شعيباً والذين آمنوا معه، ثم إنه ـ فيما يظهر ـ هجر أرض مدين ، واتجه شمالاً إلى نهر الأردن حيث يوجد اليوم قرب مدينة السلط الأردنية وادٍ يسمّى : وادي شعيب ، وهذه دلالة على أن نبي الله قد اتخذه موطناً ، ويوجد شمال ذلك مكان يدعى (قبر النبي شعيب) يتوارث الناس هناك أنه قبر شعيب النبي .

ومع أننا لا نشك في عذاب قوم شعيب ، الاّ أنه زيادة في الايضاح والتأكيد فانك إذا زرت المكان المعروف بالبدع ، والذي يزعم المساعيد أهل تلك الناحية[1] أن بئر شعيب معروفة أوقفونا عليها ، أقول : إذا زرتها رأيت فيها تلالاً بارزة سامقة من طين أبيض

---

(١) معجم قبائل الحجاز : المساعيد .

مجبول ، تظنها لأول وهلة جبال حجرية ، فإذا وقفت عليها وجدتها من طين .

وبالجانب الغربي مكان يعرف بمغاير شعيب ، مغارات فيها أموات على نعوش أكفانها بيض يحسبها الرائي حديثة ، وإذا لمسها فإذا هي هامدة تتفتت[١] .

ومع أن موسى عليه السلام ، أُرسل وشعيب لا زال حياً ، وأنه صهره، فلم نجد أخباراً تذكر عن العلاقة بينهما بعد افتراقهما برحيل موسى.

ورأيت من قال : إن شعيباً لم ينبأ إلّا بعدما فارقه موسى ، وهذا مستبعد لأمور ، منها :

١ ـ إن شعيباً كان شيخاً كبيراً حين لمَّ عليه موسى ، ومن غير ناموس الله تعالى إرسال شيخ كبير ، إنما كانت الرسل ترسل في سن الأربعين ، سن القوة والجلد واكتمال العقل .

٢ ـ محاصرة القوم شعيباً ومنع بناته من الاستقاء دليل حقد وضغينة ، ومن عادة البادية التكافل والتعاضد ، فلو لم يكن بينهم وبين شعيب عداء مستحكم ، ونزاع مرير لكانوا هم الذين يسقون لبناته ، فالبدوي إذا رأى المرأة على الماء ولو لم يعرفها أخذ الدلو وسقى لها ، ويرون عدم القيام بهذه من قلة المروءة .

٣ ـ بنات شعيب ، هذا الرجل الطيب العاقل ، لِمَ لم يتزوجن حتى هذه السن ؟ من المؤكد ان رجلاً كشعيب لن يمنع زواجهن ، فإذاً هناك سبب ، وهو أن القوم لا يريدون مواصلة بينهم وبين شعيب ، لما بينهم من النزاع وتكرار شعيب دعوتهم إلى اللّه ، وفرارهم من ذلك ، وتكذيب النبي .

---

(١) معجم معالم الحجاز : البدع .

قـارون وقومـه

كان قارون رجلاً من بني إسرائيل ، وكان في مملكة فرعون في مصر ، وكان غنياً غنىً فاحشاً ، مما جعل المؤمنين والكافرين يتنازعون فيه ، فيقول الذين يريدون الدنيا فحسب : يا ليت لنا مثل أموال قارون . ويقول المؤمنون : ويلكم ، إن ما عند الله وما أعد لعباده المؤمنين لا يقاس به مال قارون ، ولو أعجبكم . فإلى قصة قارون كما أخبر بها أصدق القائلين :

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۞ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(١) .

---

(١) سورة القصص : ٧٦ ـ ٧٨ .

يخبر الله سبحانه وتعالى إن قارون كان من قوم موسى ، أي من بني إسرائيل ، وهم قوم فقراء ، فأثرى قارون فبغى على قومه بتلك الثروة ، ولم يتصدق على فقيرهم ولم يعن غارمهم ، ولم يكفل يتيماً ولا سعى على أرملة ، إنما صار يتيه ويتنعّم في دنياه مباهياً بأمواله وأثاثه ، فما زال الله يمد له ويملي ، حتى صار عنده من كنوز الدنيا ما ملأ من المخازن الكثيرة حتى صار مجموع مفاتيح مخازنه تعجز عن حملها المجموعة القوية من الناس ﴿ **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** ﴾ .

الكنوز : الذهب والفضة وكل ما يكنز من المال ، المفاتح : جمع مِفتَح ، وهو المفتاح . تنوء : تعجز عن القيام . العصبة : المجموعة . أولي القوة : الأقوياء .

ولما رأى قوم قارون تيهه واعجابه بنفسه وأمواله ، وعظوه لو يتعظ ونصحوه لو ينتصح ، فقالوا : لا تفرح ، فان الله يكره المختالين الفرحين .

ثم زادوا في الموعظة وأبلغوا حين قالوا : ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ** ﴾ هكذا أول النصح ، (الدار الآخرة) ولكن النفس الشحيحة لا يطيب لها هذا ، ﴿ **وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ** ﴾[1] فجاء المقطع التالي لتطيب نفس هذا الكناز الهلوع ﴿ **وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ أي يا قارون ـ وكم قارون اليوم على وجه هذه الأرض ـ أدّ الزكاة وتصدّق وارأف وارحم ، وهذا للدار الآخرة ، ثم كل واشرب ولا تسرف إن الله لا يحب المسرفين ، والبس مما أباح الله ، واركب

(١) سورة النساء : ١٢٨ .

مما أنعم الله به ، واسكن ما تقر به عينك وتزوج حلالاً . . . الخ ، وهذا نصيبك من الدنيا . ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ فقد خرجت من بطن أمك لا تملك شيئاً ، بل إنك من الحقارة بحيث لو لم يضع الله حبك في قلبي والديك كنت نصيب الذر والخنافس ، فمن إحسان الله إليك أن حنن عليك الوالدين حين ضعفك ، فاذكر الضعفاء عند قوتك ، ثم ترعرعت بين قوم محمياً بقوة العصبية ، فاحمِ الآن المضطهدين والمظلومين ، ومنَّ عليك فأغناك ، فاذكر الفقراء الذين يتضورون جوعاً وأنت ترفل في النعيم .

فهذا القول دستور حياة لكل مؤمن (الدار الآخرة ، نصيب الدنيا ، الإحسان إلى عباد الله) وكل ما غيره لا خير فيه انما هو فساد كبير ، لذا قال قوم قارون : (ولا تبغ الفساد في الأرض) . أي أن من يعمل غير ما تقدم هو مفسد في الأرض مخرّب لناموس الحياة ، حب الفضيلة ، محبة الناس بعضهم بعضاً ، التوادّ والتراحم والتواصل .

والله يكره المفسدين ، وقد أعد لهم يوماً تزوغ فيه العقول والأبصار ، في ذلك اليوم ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً ﴾[(١)] .

ولكن قارون المختال اللجوج أنكر عليهم هذا وسخر منهم ، فقال : ﴿ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾[(٢)] قال المفسرون فيه عدة أوجه ، أصحها : إن الله اعطاني هذا لحبه ولعلمه انني استحقه ، ونأى بجانبه عن النصح ، ورده رد المتعجرف الضجر .

ولكن الله يرد عليه رد الرب القاهر العالم ، فيقول له : مسكين

---

(١) سورة النبأ : ٤٠ .

(٢) سورة القصص : ٧٨ .

أنت يا قارون ، أين مالك من أموال أصحاب القرون السابقة ؟! أين أنت من عاد وثمود ؟! عندك خبرهم لا شك ، كانوا أشد منك وأكثر أموالاً ، أين هم يا قارون ؟! لقد أهلكهم الله فأصبحوا كأمس الدابر .

﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمِ الْمُجْرِمُونَ ﴾[٤] أي أنها ذنوب قد سجلت عليهم وصدقت من لدن خبير حكيم ، فلا مجال للمحاجة فيها ، فهي من الأمور المسلّم بها : كفرتم فذوقوا مس سقر .

فماذا عمل قارون ؟! أإزدجر ؟ أإرعوى ؟! كلّا ، بل دخل داره وتزين ، أي لبس أبهى ثيابه ، ثم خرج على قومه مختالاً متبجحاً ، كما يقول أمثاله : يفيض الحاسدين ويفرح المحبين .

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۞ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ

فلما رآه المتلهفون على الدنيا الزاهدون في الآخرة كادت تفيض نفوسهم حسرة ، وقالوا : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ أي ليت الله أعطانا مثلما أعطاه ، ورأوا ذلك من الحظ

---

(٤) القصص : ٧٨ .

(١) سورة القصص : ٧٩ ـ ٨١ .

الكبير ، والنعم التي يحسد عليها ، وما درى هؤلاء المساكين أن من يضحك كثيراً قد يبكي كثيراً، وأن الغبطة بالعمل الصالح والمال الذي أوتي فيه حق الله ، وهكذا قال لهم علماؤهم ووعاظهم لا تتمنوا أموال قارون ، فإن الله ابتلاه بها ليعذبه بها في الدنيا ويوم يلقى ربه ، وأن ثواب الله لمن أصلح عمله وحسن إيمانه خير للمحتسبين.

﴿وَلاَ يُلَقَّاها إلاَّ الصَّابِرُونَ﴾(١) أي أن الجنة التي يسعى كل مؤمن إليها ويجعلها هدفاً من أهدافه ليست بالأمر السهل ، ولن يدخلها إلاَّ المؤمن العامل الصابر المحتسب ، ولا يكون ذلك الا بالزهد في هذه الدنيا. واسمع قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٢).

فلما وصل قارون إلى هذه الدرجة من فتنة الناس ، واختلافهم عليه ، فطالب مثل الذي عنده ، ومزهّد فيه ، أخذه الله ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ فخسف به الأرض هو وأمواله ومخازنه وكل ما يملك ، خسف به عياناً والناس تنظر ، فأصبح كأمس الدابر ، وذهبت وجاهته وجبروته ولم يجد ناصراً من الله ، وما كان أحد يستطيع نصره ، وهو أضعف مقدرة وأقل ناصراً . وفجع الذين كانوا يرنون إليه بعيون كلها غبطة ورجاء ، وصاحوا هلعى ، وقالوا : يا ويلنا ! أنتمنى ما أعطي هذا الطاغية ؟! فلولا لطف الله لخسف بنا كما خسف به . .

يقول سبحانه :

(١) سورة القصص : ٨٠ .
(٢) سورة القصص : ٨٣ .

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١).

ولما رأى المتمنون مكانة قارون وما عمل الله به ندموا ، واستعاذوا بالله وصرحوا بالإقرار بأن بسط الرزق ليس معناه رضا الله على العبد ، ولا هو بمخلده ، وآمنوا أن الله يغني ويفقر لِحكمٍ هو أعلم بها ، فلا غني أتى بهذا الغنى باحتياله وجهده ، ولا فقير قدر عليه رزقه إلّا لحكمة الله أعلم بها ، والمأجور السعيد من هؤلاء : الغني الشاكر ، والفقير الصابر . وفي الحديث الشريف : (اطّلعت على الجنة فوجدت أكثر من فيها الفقراء)(٢) .

ويتقدم أولئك المتمنون بالشكر لله معلنين إيمانهم بأن الله لو أراد لخسف بهم الأرض كما خسف بقارون لتمنيهم مثل ما أُعطى .

هذا قارون أتاه الله الغنى الفاحش فلم يشكر ولم يؤد حق الله فيه ، نظر إليه الفقراء فلم يرد نظرهم بما يسد رمقهم ، وغبطه طالبو الدنيا فتاه عليهم وتفنن في لباسه واظهار غناه ، ووعظه الواعظون فقال : إنما أوتيته على علم ! فأين ذهب هذا العلم حين نزول أمر الله ؟! لماذا لم يحتل على تلك الأرض التي ابتلعته ؟!

وكم على الأرض اليوم من قارون يملك الشركات العديدة

---

(١) سورة القصص : ٨٢ - ٨٣ .

(٢) أو هذا معناه ، رواه أحمد .

ذات الفروع الكثيرة ؟ كم على وجه هذه الأرضِ من قارون يملك من البر والبحر ما لا تحصى مفاتحه ؟! ينمِّي ويكثِّر ، فلا غوث جائع ، ولا إرواء ظامىء ، ولا بناء مساجد ، ولا تعليم علم .

ثم يؤُول ذلك كله إما إلى كارثة تأتي عليه ثم تفيض نفسه حسرة على ما فقد ، أو إلى وارث لا يتصدق عنه ولا يترحم عليه ، فيبوء بإثم ما جمع ، ويذوق مرارة حسابه يوم يلقى الله وقد ترك كل ما خوَّله وراءه ، يوم يأتي ربه فرداً لا خدم ولا حشم ، ولا فضة ولا ذهب ، إنما هو عمله الذي قدمه يجده في كتاب ﴿ **لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَاهَا** ﴾[1] .

---

(١) سورة الكهف : ٤٩ .

سبـــأ

سبأ في الأصل رجل ، هو كما يقول النسابون : سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان ، من العرب العاربة ، ويقول النسابون أيضاً : اسمه عبد شمس ، وإنه أول من سبأ وأسر الأعادي ، فلقب سبأ ، ثم خرجت من سبأ أمة عظيمة ، أهمها : حِمْير وكهلان ، فكونت سبأ دولة في اليمن ، وأصلحت الأرض وبنت السدود ، واتخذوا مأرب عاصمة لملكهم ، وبنو فيها سداً عظيماً كان يخرج منه نهر عظيم وتكون المزروعات على جانبيه ، فتسمى التي على يمينه الجنة اليمنى ، والتي على يساره الجنة اليسرى ، وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ وبَدَّلْنَاهُمْ بِجنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾[1] وهو ما سيتبع .

وربطاً لما جاء في خبر هلاكهم عدنا لكتب الأخبار نستقرىء ما قيل عن تلك الجنان ، فوجدت ياقوت الحموي ـ كعادته يرحمه الله ـ هو الإسعاف ، فذكر مأرب وما قيل عنها ، وما جاء في سبب تفرق سبأ ودمار ديارهم ، وصلب الكتاب هي الأخبار التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، أي آيات القرآن الكريم ، لذا لم أر البحث في كتب التاريخ إلّا لالقاء الضوء على ما غمض

(١) سورة سبأ : ١٦ .

تفسيره، لذا اكتفيت بما أورده ياقوت، وقد استقصى كعادته، فقال:

مَأرِبٌ[1] : بهمزة ساكنة ، وكسر الراء ، والباء الموحدة ، اسم المكان من الأَرَب وهي الحاجة ، ويجوز أن يكون من قولهم : أرُبَ يأرُب إرَباً إذا صار ذا دَهْيٍ ، أو من أرِب الرجل إذا احتاج إلى الشيء وطلبه ، وأرِبْتُ بالشيء : كَلِفْتُ به ، يجوز أن يكون اسم المكان من هذا كله : وهي بلاد الأزد باليمن ، قال السُّهيلي : مأرب اسم قصر كان لهم ، وقيل : هو اسم لكل ملك كان يلي سبأ كما أن تُبّعاً اسم لكل من ولي اليمن والشحر وحضرموت[2] ، قال المسعودي : وكان هذا السُّد من بناء سبإ بن يَشجُب بن يعرب وكان سافله سبعين وادياً ومات قبل أن يستتمّه فأتمته ملوك حمير بعده ، قال المسعودي : بناه لقمان بن عاد وجعله فرسخاً في فرسخ وجعل له ثلاثين مَثْعباً ، وفي الحديث : أقطع رسول الله ، ﷺ ، أبيض بن حمّال ملحَ مأرب[3]، حدثني شيخ سديد فقيه محصّل من أهل صنعاء من ناحية شبام كَوْكبان وكان مستبيناً متثبتاً فيما يحكي قال: شاهدت مأرب وهي بين حضرموت وصنعاء ، وبينها وبين صنعاء أربعة أيام ، وهي قرية ليس بها عامر إلا ثلاث قرى يقال لها الدروب إلى قبيلة من اليمن : فالأول من ناحية صنعاء درب آل الغشيب ثم درب كهلان ثم درب الحُرمة ، وكل واحد من هذه الدروب كاسمه درب طويل لا عرض له طوله نحو الميل كل دار إلى جنب الأخرى طولاً وبين كل درب والآخر نحو فرسخين أو ثلاثة ، وهم يزرعون على ماء جارٍ يجيء من ناحية السُّدّ وسألتُه عن سُدّ مأرب فقال : هو بين ثلاثة جبال يصب ماء

---

(١) عن معجم البلدان : مأرب .

(٢) هذه أقاويل ، أما الثابت فإن سبأ رجل سُمي نسلُه باسمه .

(٣) كذا ورد في المعجم ، ولم يسنده .

السيل إلى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة فكان الأوائل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يغيض من مياه السيول فيصير خلف السُّد كالبحر فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السّد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسُدّونه إذا أرادوا ؛ وأما خبرُ خراب سُدّ مأرِب وقصّةُ سَيْل العَرِم فإنه كان في ملك حبشان فأخرب الأمكنة المعمورة في أرض اليمن وكان أكثر ما أخرب بلاد كهلان بن سبإ بن يشجُب بن يعرب وعامة بلاد حمير بن سبإ ، وكان ولد حمير وولد كهلان هم سادة اليمن في ذلك الزمان ، وكان عمرو بن عامر كبيرهم وسيدهم وهو جد الأنصار فمات عمرو بن عامر قبل سيل العَرِم وصارت الرياسة إلى أخيه عمران بن عامر الكاهن ، وكان عاقراً لا يولد له ولد ، وكان جواداً عاقلاً ، وكان له ولولد أخيه من الحدائق والجنان ما لم يكن لأحد من ولد قحطان ، وكان فيهم امرأة كاهنة تسمى طُرَيفة فأقبلت يوماً حتى وقفت على عمران بن عامر وهو في نادي قومه فقالت : والظلمة والضياء ، والأرض والسماء ، ليقبلن إليكم الماء ، كالبحر إذا طما ، فيدع أرضكم خلاء ، تسفي عليها الصَّبا ، فقال لها عمران : ومتى يكون ذلك يا طُريفة ؟ فقالت : بعد ستّ عدد ، يقطع فيها الوالد الولد ، فيأتيكم السّيل ، بفَيض هَيْل ، وخطب جليل ، وأمر ثقيل ، فيخرّب الديار ، ويعطل العشار ، ويطيب العَرار ، قال لها : لقد فُجعْنا بأموالنا يا طُريفة فبيّني مقالتك ، قالت : أتاكم أمر عظيم ، بسيل لطيم ، وخَطْب جسيم ، فاحرسوا السُّدّ ، لئلا يمتدّ ، وإن كان لا بُدّ من الأمر المُعَدّ ، انطلقوا إلى رأس الوادي ، فسترون الجُرَذ العادي ، يجرّ كل صخرة صَيْخاد ، بأنياب حداد ، وأظفار شداد . فانطلق عمران في نفر من

قومه حتى أشرفوا على السّدّ ، فإذا هم بجُرْذان حُمْر يحفرن السدّ الذي يليها بأنيابها فتقتلع الحجر الذي لا يستقلّه مائة رجل ثم تدفعه بمخاليب رجليها حتى يُسَدّ به الوادي مما يلي البحر ويفتح مما يلي السدّ ، فلما نظروا إلى ذلك علموا انها قد صدقت ، فانصرف عمران ومن كان معه من أهله ، فلما استقرّ في قصره جمع وجوه قومه ورؤساءهم وأشرافهم وحدّثهم بما رأى وقال : اكتموا هذا الأمر عن إخوتكم من ولد حمْير لعلّنا نبيع أموالنا وحدائقنا منهم ثم نرحل عن هذه الأرض ، وسأحتال في ذلك بحيلة ، ثم قال لابن أخيه حارثة : إذا اجتمع الناس إليّ فإني سآمرك بأمر فأظهر فيه العصيان فإذا ضربتُ رأسك بالعصا فقم إليّ فالطمني ، فقال له : كيف يلطم الرجل عمَّه ! فقال : افعل يا بنيّ ما آمرك فإن في ذلك صلاحك وصلاح قومك ؛ فلما كان من الغد اجتمع إلى عمران أشراف قومه وعظماء حمْير ووجُوه رعيته مسلّمين عليه ، فأمر حارثة بأمر فعصاه فضربه بمخصرة كانت في يده فوَثب إليه فلطمه فأظهر عمران الأنفة والحمية وأمر بقتل ابن أخيه حتى شفع فيه ، فلما أمسك عن قتله حلف أنه لا يُقيم في أرض امتُهنَ بها ولا بُدّ من أن يرتحل عنها ، فقال عظماء قومه : والله لا نقيم بعدك يوماً واحداً ! ثم عرضوا ضياعهم على البيع فاشتراها منهم بنو حِمْير بأغلى الأثمان وارتحلوا عن أرض اليمن فجاء بعد رحيلهم بمديدة السيل وكان ذلك الجرَذُ قد خرّبَ السدّ فلم يجد مانعاً فغرّق البلاد حتى لم يَبْقَ من جميع الأرضين والكروم إلا ما كان في رؤوس الجبال والأمكنة البعيدة مثل ذمار وحضرموت وعدن ودُهيت الضياع والحدائق والجنان والقصور والدور وجاء السيل بالرمل وطَمّها فهي على ذلك إلى اليوم ، وباعد الله بين أسفارهم كما ذكروا فتفرّقوا عباديد في البلدان ، ولما انفصل عمران وأهله من بلد اليمن عَطف ثعلبة العنقاءُ بن عمرو بن عامر ماء

السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن بن الأزد بن الغوث نحو الحجاز فأقام ما بين الثعلبية إلى ذي قار وباسمه سميت الثعلبية فنزلها بأهله وولده وماشيته ومن يتبعه فأقام ما بين الثعلبية وذي قار يتتبع مواقع المطر ، فلما كبر ولده وقوي ركنه سار نحو المدينة وأقاموا بها فابتنوا فيها الآطام وغرسوا فيها النخل فهم الأنصار الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياءَ ، وانخزع عنهم عند خروجهم من مأرب حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء وهو خزاعة فافتتحوا الحرم وسكانه جُرْهُم وكانت جُرهُم أهل مكة فطغَوْا وبَغَوْا وسنّوا في الحرم سنناً قبيحة وفجر رجل منهم كان يسمى إساف بامرأة يقال لها نائلة في جوف الكعبة فمُسخا حجرين ، وهما اللذان أصابهما بعد ذلك عمرو ابن لُحَيّ ثم حَسّنَ لقومه عبادتهما ، كما ذكرته في إساف ، فأحب الله تعالى أن يخرج جُرهماً من الحرم لسوء فعلهم ، فلما نزل عليهم خزاعة حاربوهم حرباً شديدة فظَفّرَ الله خزاعة بهم فنَفَوْا جرهماً من الحرم إلى الحلّ فنزلت خزاعة الحرم ثم إن جُرهماً تفرّقوا في البلاد وانقرضوا ولم يبق لهم أثر ، ففي ذلك يقول شاعرهم[1] :

كأنْ لم يكن بين الحَجُون إلى الصفا
أنيسٌ، ولم يسمُرْ بمكة سامرُ
بَلى! نحن كنّا أهلها فأبادنا
صروفُ الليالي والجدود العواثرُ
وكنّا وُلاة البيت من قبل نابت
نطوف بذاك البيت والخيرُ ظاهرُ

---

(١) قد ذكر الهمداني لجرهم بقية في دوقة . انظر بين مكة واليمن للمؤلف : ٧١ . والشعر ينسب لعمرو بن مضاض الجرهمي . انظر معجم معالم الحجاز / الحجون .

وعطف عمران بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء مفارقاً لأبيه وقومه نحو عُمان وقد كان انقرض من بها من طسم وجديس ابْنَيْ إرم فنزلها وأوطنها وهم أزد عمان منهم وهم العتيك آل المهلّب وغيرهم ، وسارت قبائل نصر بن الأزد وهم قبائل كثيرة منهم دَوْس رهط أبي هُرَيرة وغامد وبارق وأحجن والجنادبة وزهران وغيرهم نحو تهامة فأقاموا بها وشنؤوا قومهم أو شنئهم قومهم إذ لم ينصروهم في حروبهم أعني حروب الذين قصدوا مكة فحاربوا جُرْهم والذين قصدوا المدينة فحاربوا اليهود فهم أزد شنوءة .

هذا ما قاله الأخباريون عن سبأ ، فماذا قال أصدق القائلين :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[1].

يقول جل وعلا : لو كانت تبصر سبأ وتتفكر فيما حولها لكان لها في هذا المسكن أي الديار التي حباها الله أودية ثـرَّارة ، وألهم أهلها عمل السدود وحفظ الماء يتصرفون فيه كيف يشاءون ، آية ظاهرة تدعو إلى التفكير، وأعجوبة تدعو إلى شكر الجليل المنعم، سدّ يكنز وراءه بحراً من الماء العذب ، ووادٍ خصيب علي يمينه وشماله الجنات ، رزق من رب العباد ، ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ أي خصبة التربة حسنة الهواء نظيفة الأرض ، ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ رب يغفر الزلات ويكافىء على الشكر بزيادة النعم ، سبحان الله ! أيها الإنسان الجهول ، أتجتمع لك مثل هذه الخيرات فتكفر ولا تشكر ؟! وهذا

(١) سورة سبأ : ١٥ .

ربك الجليل الكريم الغفور ، يقول : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[1] .

فماذا عملت سبأ لقاء هذه النعم والخيرات الكثيرة ؟! اسمع الخبر اليقين من رب العالمين :

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۞ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾[2].

لقد أعرضوا عن ذكر الله ، فكان لا بد من الجزاء الأوفى ، جزاء الجاحدين المستكبرين ، وكل عمل له جزاء مساوٍ له ، فهؤلاء أغدق الله عليهم الماء العذب والثمار اليانعة ، مما زادهم قوة وعدداً ، فكان لا بد أن ينتزع منهم أسباب هذه القوة لقاء جحودهم بأنعم الله ، ولا بد من تبديل أمنهم خوفاً ، واجتماعهم تفرقاً ، وقوتهم ضعفاً ، ومع هذا كله أراد أن يريهم قوته وقدرته في أضعف الحشرات ! فالحجارة التي بنوا بها السد كان لا يحمل أحدها عدد من الرجال ، فإذا فأر ينقل هذا الحجر ويخلخل البناء الضخم ، سبحان القوي القيوم ، أفأر هذا أم هي قدرة القادر المقتدر ، وجاءت الطامة ، إذ جاء سيل عرم عرمرم فوجد سداً مخلخلاً فردم الجنات فأصبحوا يقلبون الأكف على ما أنفقوا فيها ، وبدلهم الله بتلك الجنات نباتات الصحارى ، من الأراك والأثل والسدر ، وهو ما تأكله الأنعام لا الأنام .

---

(١) سورة إبراهيم : ٧ .

(٢) سورة سبأ : ١٦ ـ ١٧ .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير بعض هذه الآيات(١) :

وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل وهو الذي تخترف فيه الثمار فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيء من الهوام وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه كما قال تبارك وتعالى ﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَة** ﴾(٢) ثم فسرها بقوله عز وجل ﴿ **جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ** ﴾(٣) أي من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿ **كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** ﴾(٤)أي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد . وقوله تعالى : ﴿ **فَأَعْرَضُوا** ﴾(٥) أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ **وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن**

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/٥٣٢ ـ ٥٣٣ .

(٢) و (٣) و (٤) سورة سبأ : ١٥ .

(٥) سورة سبأ : ١٦ .

دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[١]. وقال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه بعث الله تعالى إليهم ثلاثة عشر نبياً ، وقال السدي أرسل الله عز وجل إليهم اثني عشر ألف نبي والله أعلم . وقوله تعالى ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمِ سَيْلَ الْعَرِمِ** ﴾[٢] المراد بالعرم المياه ، وقيل الوادي وقيل الجرذ وقيل الماء الغزير فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع وسعيد كرز ، حكى ذلك السهيلي . وذكر غير واحد منهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك أن الله عز وجل لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض يقال لها الجرذ نقبته قال وهب بن منبه وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير وولجت إلى السد فنقبته فانهار عليهم وقال قتادة وغيره الجرذ هو الخلد نقبت أسافله حتى إذا ضعف ووهى وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال فيبست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ **وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني والحسن وقتادة والسدي وهو الأراك وأكلة البربر (وأثل) قال العوفي عن ابن عباس هو الطرفاء . وقال غيره هو شجر يشبه الطرفاء وقيل هو

---

(١) سورة النمل : ٢٢ ـ ٢٤ .

(٢) سبأ : ١٦ .

السمر والله أعلم(١) . وقوله ﴿ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال ﴿ وشيء من سدر قليل ﴾ فهذا الذي صار أمر تينكَ الجَنتين إليه بعد الثمار النضجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل ؛ وذلك بسبب كفرهِم وشِركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ، ولهذا قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾(٢) أي عاقبناهم بكفرهم قال مجاهد ولا يعاقب إلا الكفور. وقال الحسن البصري صدق الله العظيم لَا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور . وقال طاوس لا يناقش إلا الكفور . وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملي حدثنا حجاج بن محمد حدثنا أبو البيداء عن هشام بن صالح التغلبي عن ابن خيرة وكان من أصحاب علي رضي الله عنه قال : جزاء المعصية الوهن في العبادة والضيق في المعيشة والتعسر في اللذة قيل وما التعسر في اللذة ؟ قال لا يصادف لذة حلالاً إلا جاءه من ينغصه إياها .

وقد فرق الله سبأ فرقاً كما تقدم ، فضربت العرب بهم المثل (تفرقوا أيدي سبأ) ، وأبعدهم الله عن القرى ذات الخيرات وهيمهم في الصحارى ، وسلط عليهم الأعداء ، فقال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۞ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا

---

(١) قال المؤلف : الأثل والطرفاء من فصيلة واحدة ، تتقارب في الشكل وتختلف في الجوهر .

(٢) سورة سبأ : ١٧ .

وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[1].

يقول ابن كثير في تفسير ذلك : يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد ، والبلاد المرضية ، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمراً ، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ولهذا قال تعالى ﴿ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** ﴾ قال وهب بن منبه هي قرى بصنعاء ، وكذا قال أبو مالك ، وقال مجاهد والحسن وسعيد بن جبير ومالك عن زيد بن أسلم وقتادة والضحاك والسدي وابن زيد وغيرهم يعني قرى الشام يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿**القرى التي باركنا فيها**﴾ بيت المقدس، وقال العوفي عنه أيضاً هي قرى عربية بين المدينة والشام ﴿ **قُرىً ظَاهِرَةً** ﴾ أي بينة واضحة يعرفها المسافرون يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى ولهذا قال تعالى ﴿ **وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ** ﴾ أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿**سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَاماً آمِنِينَ** ﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهارا ﴿ **فَقَالُوا رَبَّنا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** ﴾ وقرأ آخرون (بعِّد بين أسفارنا) وذلك أنهم بطروا هذه النعمة كما قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد

---

(١) سورة سبأ : ١٨ ـ ١٩ .

والرواحل والسير في الحرور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها مع أنهم كانوا في عيش رغيد في منّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة ولهذا قال لهم ﴿ **أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ** ﴾(١) وقال عز وجل ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها** ﴾(٢) وقال تعالى ﴿ **وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾(٣) . وقال تعالى في حق هؤلاء ﴿ **فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** ﴾(٤) أي بكفرهم ﴿ **فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ** ﴾(٥) أي جعلناهم حديثاً للناس وسمراً يتحدثون به من خبرهم وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعدَ الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد .

وبعد ، يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ؟ إن الذي أعطى سبأ ذلك الخير العميم هو الذي أعطاك ، وإن الذي استلب ذلك منها لقادر أن يستلب منك ما اعطاك . ولا يغرنك ما أعطى أقواماً ومد لهم مداً ، فلعل ذلك شراً لأنفسهم .

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾(٦).

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾(٧).

---

(١) سورة البقرة : ٦١ .
(٢) سورة القصص : ٥٨ .
(٣) سورة النحل : ١١٢ .
(٤) و (٥) سورة سبأ : ١٩ .
(٦) سورة آل عمران : ١٩٦ .
(٧) سورة إبراهيم : ٧ .

أصحاب القريـة

قص الله علينا في محكم كتابه العزيز كثيراً من أخبار القرى ، فمنها ما سماه وسمى نبيه ، ومنها ما لم يسم لحكمة أرادها ، إنما سمى أعمالهم وأخبرنا بما جزاهم لقاء تلك الأعمال التي ارتكبوها . فمنهم من كان آمناً مطمئناً يرزق رزقاً رغداً فكفر فبـدَّل الله نعمته نقمة ، ومنهم من أعطاه الله من الثمرات فبخل ونوى حرمان الفقراء والجياع فمحـق الله ثمره جزاء حرصه وبخله ، ومنهم من حرم عليه يوم سبته فاحتال لاحتبـاس الصيد إلى يوم الأحد ! كما يقص علينا سبحانه وتعالى أن بعض القرى قد كفرت فانزل بها العذاب ، ثم آبت وتابت فكشف عنها العذاب .

وكل هذه دروس وعظات وقانون إلٰهـي : تسؤ تجزَ ، تحسن يتاب عليك ويعفى عنك ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد ﴾[1] . وإليك اجتزاء من أخبار بعض القرى لا استقصاء ، لأن الدروس والعظات يكفي بعضها عن بعض ، ويقاس بعضها ببعض ، ولا تحسبن هذه الآيات موقوفة على من أخبر الله عنهم ، بل إلى اليوم وإلى يوم تقوم الساعة يظل قانون العدل الإلٰهي : من يعمل سوءاً يجـز به ، ومن يعمل صالحاً يلق ثواباً ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾[2] .

---

(١) سورة فصلت : ٤٦ .

(٢) سورة الكهف : ٤٩ .

القرية الآمنة :

يقول أصدق القائلين :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۞ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۞ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(١).

يقول الله جلّ وعلا : يا محمد ـ والخطاب للجميع في كل زمان ومكان ـ اضرب للناس مثلاً تلك القرية ، قل : انظروا إلى قرية رزقها الله الأمن والاطمئنان ، لا تخاف عدواً ولا جوعاً أو ظمأ ، يرسل الله عليها رزقها رخاء سخاء سهلاً مباركاً من كل مكان ، وكأنها كبيت الله يجبى إليه ثمرات كل شيء . فما زالت تلك القرية تتقلب في الخير والنعيم حتى بطرت فجحدت فضل الله ونسيت فكفرت النعمة وعاثت في الأرض فساداً ، لا إلهاً تعبد ، ولا منعماً تشكر ، فبدل الله شبعها جوعاً وأمنها خوفاً ، وألبسهم البؤس لباساً جزاء ما صنعوا .

وقد أرسل الله إليهم رسولاً يبين لهم خطل ما يعملون ، ويدلهم على سبل الرشاد وطريق المفلحين ، ولكنهم استحبوا الضلال ، وركبوا الهوى ، فكذبوا رسول الله وعصوا فحاق بهم ما

---

(١) سورة النحل : ١١٢ ـ ١١٤ .

كانوا يصنعون ، وأرسل الله عليهم عذاباً وخزياً ، وتبدلت سعادتهم شقاء وعزتهم ذلة ، وغناهم فقراً ، وكثرتهم قلة ، فأصبحوا كأمس الدابر .

ثم يوجه الله العزيز الحميد الخطاب إلى هذه الأُمَّة فيقول : كلوا مما رزقناكم من الحلال الطيب ، واعلموا أن ثمنه وجزاءه الشكر ، وبالشكر تدوم النعم ، والشكر عبادة ، ولذا قال : ﴿ وأشْكُرُوا الله إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [1] أي إن تعبدوا الله اشكروا ، وان لم تشكروا فقد كفرتم ، وإذا كفرتم فقد قصصنا عليكم آنفاً ماذا حل بمن كفر .

أصحاب الجنة المسخوطة :

ويضرب الله لنا مثلاً آخر من أمثال القرى المسرفة على نفسها ، والله يضرب لنا الأمثال للدرس والاتعاظ ، والعبرة والاعتبار ، وها هو الحق المبين يقول :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۞ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۞ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾[2] .

فهؤلاء قوم لهم بستان (جنة) أينع واستوى ثمره ، وكثر نظر الفقراء والمحتاجين إليه ، لعلهم يحضرون الحصاد فيتيسر لهم من

---

(١) سورة البقرة : ١٧٢ .

(٢) سورة القلم : ١٧ ـ ٢٠ .

شُبْرته ما يصلح حالهم ، وفطن أصحاب البستان إلى ما يجول في نفوس المحرومين ، فأرادوا أن يفوتوا عليهم هذه الفرصة ، فأقسموا ليحصدن بستانهم في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ المتشبِّرون والمتحنسون ، ولم يقولوا : إن شاء الله . (ولا يستثنون) فأرسل الله عليها أفة من آفاته فاصبحت خميداً كالصريم ، أي كأنها قد حصدت فلم يعد فيها ما ينفعهم ، كان ذلك جزاء بخلهم ومكرهم وعدم إعطاء حق النعمة ، قال الله ﴿ **وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حِصَادِهِ** ﴾[1] ولكن هؤلاء منعوا حقه ، فمنعهم الله كله.

وكم ترى اليوم من أمتك وناسك من يعمل مثل هذا ، ﴿ **وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴾[2] .

ويصف الله جل وعلى طريقتهم في التنفيذ ، فيقول :

﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۞ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ۞ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ۞ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۞ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ۞ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ۞ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۞ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة الانعام : ١٤١ .

(٢) سورة القلم : ٤٥ .

(٣) سورة القلم : ٢١ ـ ٣٣ .

يقول أصدق القائلين : فنادى بعضهم بعضاً في الصباح الباكر ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ أن هيا إلى صرام زرعكم قبل أن يفطن إليكم من تخفون عنه، فانطلقوا يسارُّ بعضهم بعضاً حتى لا يسمع أصواتهم من يخشون حضوره الحصاد، ﴿يَتَخَافَتُونَ﴾ أي يكلم بعضهم بعضاً بصوت خافت غير مسموع. بماذا يتخافتون ؟! (يتواصون ـ ويا قبح ما تواصوا به ـ أن لا يدخل المساكين والمتحنسة أرضكم فيصيبوا من غلتها ، وأسرعوا بالغداة يحثون الخطا وكأنهم يسابقون الضوء الذي يوشك أن ينتشر فيه الناس ، وقد أمنوا أو كادوا تنبه المساكين والمحرومين) .

المفاجأة :

وفجأة ظهرت لهم تلك الجنة ، ويا لهول ما رأوا ، أين الثمار التي كانت البارحة في نضارة وينوعة ؟! أين الجنة ذات الخضرة النضرة والأريج الفائح ؟! لقد تحولت إلى حطام كأنها حصد قبل زمن ، أليس هذا هو الجزاء العادل ؟!

قالوا : إنا ضللنا بحسدنا وجحودنا نعمة المنعم ، بل إننا محرومون ، لم يرد الله لنا خيراً ، ولكن أعقلهم قال لهم ألم انصحكم بأن تؤمنوا بالله ؟! ولا تمنعوا حق نعمته ، ولا تنوون نية السوء فيما آتاكم ؟! فاسترجعوا وندموا ، ولات ساعة مندم ، إلّا إنهم قد تابوا وأنابوا ولام بعضهم بعضاً ، واعترفوا بخطأهم .

ثم يخبر سبحانه قائلاً : هذا جزاء من يفعل فعلهم، ولكن الأكبر هو عذاب الآخرة ، فهو أشد وأنكى ، والعاقبة للمتقين .

القردة والخنازير :

وهؤلاء قوم من بني إسرائيل يسكنون قرية على ساحل البحر ،

وقد حرم الله عليهم أن يصيدوا يوم السبت ، وهو اليوم المقدس عند اليهود ، فأراد الله اختبار إيمانهم ، فصارت الأسماك تأتي إليهم يوم السبت تسبح على الساحل (شُرعاً) ، فإذا جاء يوم الأحد جفلت بعيداً ، فاحتالوا على الله وعلى مخلوقاته ففتحوا مسارب من البحر إلى البر ، حتى إذا دخلت تلك الأسماك في تلك المسارب قطعوا بينها وبين البحر ، فتبقى محصورة في ذلك الماء ، فإذا جاء يوم الأحد اصطادوها ، وهم بزعمهم لم يصيدوها يوم السبت ! .

وقد عاقبهم الله على هذا الاحتيال عقاباً لم يعاقب به أحداً قبلهم ولا بعدهم مثله ، فقد حول هؤلاء المحتالين على الله المستهترين بأوامره ونواهيه إلى قردة وخنازير ، ووعدهم أن يبعث إليهم من يعذبهم إلى أن تقوم الساعة .

يقول جل وعلا :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾(1).

---

(1) سورة الأعراف : ١٦٣ - ١٦٦ .

ويخبر المولى أن هذا فسق منهم ، وخداع واحتيال على أوامر الله ، فلما قام منهم من يعظهم ويبين لهم أن هذا مما يغضب الله ، ويوجب عقابه ، وقد أيقن قومهم بهلاكهم ، قالت طائفة منهم : إن هؤلاء مهلكون ، فلم الموعظة وقد حق عليهم العذاب ؟! قال الذين أمنوا : لنعذر أمام الله ، ويعلم أننا أدينا رسالتنا ، ورجاء أن ينيبوا ويتوبوا ، وهذا دليل واضح أن المؤمنين منهم ما كانوا رضوا بهذا العمل ولا شاركوا فيه ، ورغم هذا أصم المجرمون آذانهم وتمادوا في عصيانهم ، فلما حق عليهم القول أنجى الله الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وحل العذاب على المبطلين بفسقهم ، ومسخهم قردة وخنازير ، وخسأهم وجعلهم الأرذلين ، وجعل عذابه يلاحقهم إلى يوم القيامة أينما حلوا ، وأينما يمّموا . يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

وقد تأذن ربك ، أي أراد وقرر (تعهد) ليجعلن هؤلاء الأراذل ذرية بعد ذرية تحت سيطرة الجبابرة ، يسومونهم سوء العذاب ، كلما تنفسوا وظنوا أنهم أصبحوا أمة لها كيان وقوة أرسل عليها من عباده من يجوس أرضهم ويطؤ عزهم فيسوقهم عبيداً اذلّاء ، وما ذلك الّا لأنهم نسوا ما ذكروا به، واشتروا بآياته ثمناً قليلاً ، وتعهد الله الصادق البر الرحيم أن يكون هذا البلاء إلى يوم القيامة ، ثم يعرضون على الله فيحاسبهم حساباً سريعاً ، ويعاقب أو يغفر إنه غفور رحيم ، يغفر

---

(١) سورة الأعراف : ١٦٧ .

للذين تابوا وأصلحوا وعملوا صالحاً ، ويعاقب الذين لا يرجون لقاء الله ، ولم يعملوا لذلك اليوم عمله .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾(١).

القرية التي أمنت :

يخبر الله نبيه بأن قرية نينوى بأرض الموصل من العراق ، كانت قد أرسل الله إليها يونس بن مَتَّى نبياً رسولاً ، فعصوا فأنذرهم يونس بحلول العذاب ثم ذهب عنهم مغاضباً ، فلما رأوا بوادر العذاب جأروا بالشكوى ، ودعوا دعاءً عريضاً فرفع الله عنهم العذاب ، وأعاد إليهم نبيهم ، وأتم عليه نعمته إلى ما شاء ، وهذا فيه دلائل :

أولها : أن من عمل عملاً سيئاً ثم تاب إلى الله قبل الله توبته ، حتى لو كان هذا العمل هو الكفر ، وليس فوق الكفر ذنب .

وثانيها : أن الدعاء يرفع العذاب والسخط ، كما قال ﷺ : (لا يرد القدر إلاّ الدعاء)(٢) .

قال الله تعالى :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران : ٣٠ .

(٢) رواه ابن ماجه وابن حنبل .

(٣) سورة يونس : ٩٨ .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير ذلك[1] : يقول تعالى فهلَّا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم كقوله تعالى ﴿ **يَا حَسْرَةً عَلى العِبَاد مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾[2] ﴿ **كَذٰلِكَ مَا أَتَى الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاّ قَالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ** ﴾[3] ﴿ **وَكَذٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاَّ قَالَ مُترفُوهَا إنّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإنّا على آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ** ﴾[4] والغرض أنه لم توجد قريةَ آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأُخِّرُوا كما قال تعالى ﴿ **إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ** ﴾ واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي أو إنما كَشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين (أحدهما) إنما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيد في هذه الآية (والثاني) فيهما لقوله تعالى ﴿ **وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مَائةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فآمُنوا فَمَتَّعنَاهُمْ إلَىٰ حِينٍ** ﴾[5] فأطلق عليهم الإيمان ، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي وهذا هو الظاهر والله أعلم . وقال قتادة في تفسير هذه الآية لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤٣٢/٣ .
(٢) سورة يس : ٣٠ .
(٣) سورة الذاريات : ٥٢ .
(٤) سورة الزخرف : ٢٣ .
(٥) سورة الصافات : ١٤٧ ، ١٤٨ .

حضرها العذاب فتركت إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا إلى الله أربعين ليلة فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ، قال قتادة وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل، وكذا روي عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف وكان ابن مسعود يقرؤها (فهلا كانت قرية آمنت) وقال أبو عمران عن أبي الجلد قال لما نزل بهم العذاب جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا علمنا دعاء ندعو به لعل الله أن يكشف عنا العذاب فقال قولوا يا حي حين لا حي ، يا حي محيي الموتى ، يا حي لا إله إلا أنت ، قال فكشفت عنهم العذاب .

فهذه أمة عظيمة بالقياس إلى تعداد الأمم في ذلك العهد ﴿ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ إنه لعدد ضخم آنذاك ، فلما عصوا كتب الله عليهم العذاب ، ولما آمنوا ورجعوا إلى الله رفع عنهم العذاب ، إنها لأمة رشيدة حكَّمت عقلها فرأت أنه لا مفر من الله إلاّ إليه، ففرت إليه وقالت : يا رب يا رب .

فكان الله سميعاً مجيباً ، يتقبل توبة التائبين .

فقارن بين قصة هؤلاء وقصة ثمود الذين رأوا العذاب ينزل بهم جزءاً جزءاً كل يوم ، فلا يتضرعون ولا يدعون ، وقارن هؤلاء بقوم لوط غلاظ القلوب أصحاب المنكرات .

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾(١).

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٥ .

أصحاب الفيل

كانت الحبشة قد احتلت اليمن في أول القرن السادس الميلادي ، فكونت فيها دولة عظيمة تابعة لنجاشي الحبشة ، وكانوا قد اعتنقوا النصرانية ، وما لبث قادة النجاشي أن اختلفوا واقتتلوا ، وتغلب عليهم أبرهة الأشرم صاحب الفيل محمود ، فعز ملكه ، وطغى وتجبر ، واستعبد أهل اليمن واستنزف خيراتهم وسخرهم فيما يعمل ، حتى وصل به الأمر إلى غزو بيت الله الحرام لهدم الكعبة المشرفة .

وإليك القصة كاملة من سيرة ابن هشام :

يقول[1] :

غلب أبرهة الأشرم على أمر اليمن ، وقتل أرياط[2] .

قال ابن إسحاق : فأقام أرْياط بأرض اليمن سنين في سلطانه ذلك ، ثم نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشيّ - (وكان في جنده) - حتى تفرّقت الحبشة عليهما . فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ، ثم سار أحدهما إلى الآخر ، فلما تقارب الناس أرسلَ أبرهةُ إلى أرياط : إنك لا تصنع بأن تَلْقي الحبشةُ بعضها ببعض

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ١/٤١ - ٥٥ .

(٢) ارياط كان والي اليمن لملك الحبشة .

حتى تفنيها شيئاً فأبرز إليّ وأبْرز إليك ، فأينا أصاب صاحبَه انصرف إليه جندُه . فأرسل إليه أرياط : أنصفتَ . فخرج إليه أبرهة ، وكان رجلاً قصيراً (لحيماً حادراً) وكان ذا دين في النصرانية ؛ وخرج إليه أرياط ، وكان رجلاً جميلاً عظيماً طويلاً ، وفي يده حربة له . وخَلْفَ أبرهة غلامٌ له ، يقال له عَتْوَدة ، يمنع ظهره . فرفع أرياط الحربةَ فضرب أبرهة ، يريد يافوخه ، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمتْ حاجبَه وأنفه وعينه وشفته ، فبذلك سُمّي أبرهة الأشرم ، وحمل عَتْوَدة على أرياط من خلف أبرهة فقتله ، وانصرف جند أرياط إلى أبرهة ، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن ، وَوَدَى أبرهةُ أرياط .

فلما بلغ ذلك النجاشيَّ غضِب غضباً شديداً وقال: عدا على أميري فقتله بغير أمري ، ثم حلف لا يدع أبرهةَ حتى يطأ بلادَه ، ويجزّ ناصيته . فحلق أبرهةُ رأسه وملأ جِراباً من تراب اليمن ، ثم بعث به إلى النجاشِيّ ، ثم كتب إليه :

أيها الملك : إنما كان أرياط عبدَك ، وأنا عبدُك ، فاختلفنا في أمرك ، وكُلٌّ طاعتُه لك ، إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبطَ لها وأسوسَ منه ؛ وقد حلقتُ رأسي كلَّه حين بلغني قَسَمُ الملك ، وبعثتُ إليه بجراب تراب من أرضي ، ليضعه تحت قدميه ، فيبرّ قسمه فيّ .

فلما انتهى ذلك إلى النجاشيّ رضي عنه ، وكتب إليه : أنِ اثبُت بأرض اليمن حتى يأتيَك أمري ، فأقام أبرهة باليمن .

بناء القُلَّيْس :

ثم إن أبرهة بَنَى القُلَّيس بصنعاء ، فبنى كنيسةً لم يُر مثلُها في

زمانها بشيء من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشيّ : إني قد بنيتُ لك أيها الملك كنيسةً لم يُبْنَ مثلُها لملك كان قبلك ، ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حَجَّ العرب ، فلما تحدّثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشيّ ، غضب رجل من النَّسأة[1] ، أحد بني فُقَيم بن عديّ ابن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن إلياس بن مضر .

قال ابن إسحاق : فخرج الكنانيّ حتى أتى القُلَّيْس فقعد فيها ـ قال ابن هشام : يعني أحدث فيها ـ قال ابن إسحاق: ثم خرج فَلَحِق بأرضه ، فأُخبر بذلك أبرهة فقال : من صنع هذا ؟ فقِيل له : صنع هذا رجلٌ من العَرب من أهل هذا البيت الذي تحجّ العرب إليه بمكة لمَّا سمع قولك : « أصرف إليها حجّ العرب » غضب فجاء فقعد فيها ، أي أنها ليست لذلك بأهل . فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمَه ، ثم أمرَ الحبشة فتهيَّأت وتجهَّزت ، ثم سار وخرَج معه بالفيل ؛ وسمعتْ بذلك العربُ ، فأعظموه وفَظِعوا به ، ورأوا جهاده حقًّا عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هَدْمَ الكعبة ، بيتِ الله الحرام .

فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له: ذونفَرْ، فدعا قومَه، ومَنْ أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهادِه عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هَدْمه وإخرابه ؛ فأجابه إلى ذلك من أجابه ، ثم عرَض له فقاتله ، فهُزم ذو نَفْر وأصحابُه ، وأخذ له ذو نَفْر فأتِي به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نَفْر : أيها

---

(١) النسأة : الذين كانوا ينسأون الشهور في الجاهلية ، فيقدمون ويؤخرون في الأشهر الحرم .

الملك ، لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لـك من قتلي ؛ فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق ، وكان أبرهـة رجلاً حليماً .

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خَثْعَم[١] عرض له نُفَيـل بن حَبيب الخَثْعَميّ في قَبيلَيْ خَثْعَم : شَهران وناهس ، ومَنْ تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة ، وأُخذ له نُفيلُ أسيراً ، فأُتي به فلما همّ بقتله قال له نُفَيل : أيها الملك ، لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداي لك على قبيلَيْ خثعم : شَهْران وناهس بالسمع والطاعة ، فخلّى سبيلَه .

وخرج به معه يدلّه ، حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سَعْد بن عَوْف بن ثَقِيف ، في رجال ثَقِيف[٢] .

قال ابن إسحاق : فقالوا له : أيها الملك ، إنما نحن عَبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خـلاف ، وليس بيتُنا هـذا البيتَ الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تـريد البيتَ الـذي بمكة ، ونحن نبعث معك مَنْ يدلُّك عليه ، فَتجاوزَ عنهم .

قال ابن إسحاق : فبعثوا معه أبا رِغال يدلُّه على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزلـه المغمِّس[٣] ؛ فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك ، فرجمت قبرَه العرب ، فهو القبر الذي يَرْجُم الناسُ بالمغمِّس[٤] .

---

(١) أنظر عن خثعم : كتابي (بين مكة وحضرموت) .

(٢) نسب ثقيف في كتابي (معجم قبائل الحجاز) .

(٣) عن المغمس ، انظر كتابي (معالم مكة التأريخية والأثرية) .

(٤) استوفي الحديث عنه في بحث المغمس المذكور .

فلما نزل أبرهة المُغَمس ، بعث رجلاً من الحبشة يقال له : الأسْوَد بن مقصود على خيل له ، حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموالَ (أهل) تِهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مِئَتيْ بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبيرُ قريش وسيِّدُها ، فهمَّت قريش وكنانة وهُذَيل ، ومَنْ كان بذلك الحرم (من سائر الناس) بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقةَ لهم به ، فتركوا ذلك .

عبد المطلب والخطب الأكبر[1] :

وبعث أبرهة حُناطَة الحميريّ إلى مكة ، وقال له : سَلْ عن سيّد أهل هذا البلدِ وشريفها . ثم قل (له) : إن الملك يقول لك : إني لم آتِ لحربكم ، إنما جئت لهَدْم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب ، فلا حاجة لي بدمائكم ، فإنْ هو لم يُرِدْ حَرْبي فأْتني به . فلما دخل حُناطةُ مكةَ ، سال عن سيِّد قريش وشريفها ، فقيل له : عبدُ المطلب بن هاشم (بن عبد مناف بن قصي)[1] ؛ فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة ؛ فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربَه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ـ أو كما قال ـ فإنْ يَمْنَعْه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يُخَلّ بينه وبينه ، فوالله ما عندنا دَفْع عنه ؛ فقال (له) حُناطة : فانطلق معي إليه ، فإنه قد أمرني أن آتِيَه بك .

(ذو نفر وأنيس وتوسطهما لعبد المطلب لدى أبرهة) :

فانطلق معه عبد المطلب ، ومعه بعض بَنِيه حتى أتى العسكر ، فسأل عن ذي نفَرْ ، وكان له صديقاً ، حتى دخل عليه وهو

(١) هو جد رسول الله ﷺ ، وكونه مجهولاً عند أبرهة وحناطة ، قول فيه نظر .

في محبسه ، فقال له : يا ذا نفَرْ هل هندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نَفْر : وما غنَاء رجل أسير بيدَيْ مَلِك ينتظر أن يقتله غُدوًّا أو عشيًّا ما عندنا غنَاء فِي شيء مما نزل بك إلا أنّ أُنَيسا سائس الفيل صديق لي ، وسأرسل إليه فـأُوصيه بك، وأُعظم عليه حقّك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك ، فتكلِّمه بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك ؛ فقال حسبي . فبعث ذو نَفْر إلى أُنَيْس ، فقال له : إن عبد المطلب سيِّد قريش ، وصاحب عِير مكة ، يُطْعِم الناس بالسَّهـل ، والوحـوشَ في رؤوس الجبال ، وقـد أصاب لـه الملك مئتي بعير ، فاستأذن له عليه ، وأنفعهْ عنده بما استطعت ؛ فقال : أفعل .

فكلَّم أنيسُ أبرهة ، فقال له : أيها الملك ، هذا سيِّد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عِير مكة ، وهو يُطعم الناس في السهل ، والوحوشَ في رؤوس الجبال ، فأْذن له عليك ، فيكلّمك في حاجته ، (وأحْسِن إليه) .

عبد المطلب بين يدي أبرهة :

قال : فأذن له أبرهة .

قال : وكان عبد المطَّلب أوسَم الناس وأجملَهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمه وأكرمه عن أن يُجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشةُ يجلس معه على سرير مُلكه ، فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه ، وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قـال لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال لـه ذلك التَّرْجُمان ؛ فقـال : حاجتي أن يردَّ عليَّ الملكُ مئتـي بَعير أصابهـا لي ؛ فلما قـال له ذلـك ، قال أبـرهة لتَـرْجُمانـه : قل لـه : قد كنتَ أعجبتَنِي حين رأيتُك ، ثم قد زَهِدْت فيك حين كلَّمتني ، أتكلِّمني في مئتـيْ بعير

أصبتُها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه ، لا تكلمني فيه ! قال له عبد المطلب : إني أنا ربّ الإبل ، وإنَّ للبيت رباً سيمنعه ؛ قال : ما كان ليمتنع مني ؛ قال : أنت وذاك .

وكان فيما يزعم بعض أهل العلم ، قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة ، حين بعث إليه حُناطَة ، يَعْمَر بْنُ نُفاثة بن عديّ بن الدُّئل ابن بكر بن مناة بن كنانة ، وهو يومئذ سيِّد بني بكر ، وخويلدُ بن واثلة الهذلي ، وهو يومئذ سيِّد هذيل ؛ فعرضوا على أبرهة ثُلثَ أموال تِهامة ، على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم . والله أعلم أكان ذلك أم لا. فردّ أبرهة على عبد المطلب الإبلَ التي أصاب له.

فلما انصرفوا عنه ، انصرف عبد المطلب إلى قريش ، فأخبرهم الخبرَ ، وأمرهم بالخروج من مكة ، والتحرّز في شَعَف الجبال والشِّعاب ؛ تخوّفاً عليهم من مَعَرَّة الجيش ، ثم قام عبد المطلب ، فأخذ بحَلْقَةِ باب الكعبة ، وقام معه نَفَر من قريش يدعون الله ، ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلْقة باب الكعبة :

لاهُمَّ إنَّ العَبْدَ يَمْـنع رَحْلَه فامنع حِلالَكْ
لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ وَمِحالُهُمْ غَدْواً مِحالَكْ

(زاد الواقدي) :
إنْ كُنْتَ تارِكهم وقِبْلتنا فأمرٌ ما بَدَا لَكْ
قال ابن هشام : هذا ما صحّ له منها .

قال ابن إسحاق : وقال عِكْرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدّار بن قُصيّ :
لاهُمَّ أخْزِ الأسْوَدَ بن مَقْصود الآخذَ الهَجْمة فيها التَّقليد

بينَ حِــرَاءَ وثَبِيرٍ فــالـبِيــد   يَحْبِسها وهي أولات التَّطريد
فَضَمَّهــا إلى طمــاطِمٍ سُــودْ   أخفَرْهُ يا ربّ وأنت محْمـود

قال ابن هشام : هذا ما صحّ له منها ؛ والطماطم : الأعلاج .

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حَلْقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معـه من قريش إلى شَعَف الجبـال فتحرّزوا فيهـا ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكة إذا دخلها .

عجز أبرهة عن دخول مكة ، وهزيمته على أيدي جند الله

فلمـا أصبح أبـرهة تهيَّـأ لدخـول مكـة ، وهيّـأ فِيلَه وَعـبّى جيشه ، وكان اسم الفيل محموداً ؛ وأبرهة مُجْمِع لهدم البيت ، ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجَّهوا الفيلَ إلى مكة ، أقبل نُفَيل بن حَبِيب (الخثعميّ) حتى قـام إلى جَنْب الفيل ، ثم أخـذ بأذنـه ، فقال : ابرُكْ محمود ، أو ارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام ، ثم أرسلَ أذنه . فبرك الفيلُ ، وخرج نُفيل بن حَبيب يشتدّ حتى أصعد في الجبل ، وضربوا الفيلَ ليقوم فأبَى ، فضربوا (في) رأسه بالطَّبَرْزين ليقوم فأبى ، فأدخلوا مَحاجن لهم في مَراقِّه فَبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن ، فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجَّهوه إلى المَشْرق ففعَلَ مثل ذلك ، ووجَّهوه إلى مكة فبرك ؛ فأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثالَ الخَطاطيف والبَلَسان[١] ، مع كلّ طائرٍ منها ثَلاثَةُ أحجار

---

(١) الخطاطيف : جمع خطاف (كَرُمَّان) . وهو طائر أسود يقال له : « زوار الهند » ، وهو الذي تدعوه العامة عصفور الجنة .

والبلسان كذا في الأصل . وفي النهاية لابن الأثير (مادة بلس) في التعليق على حديث ابن عباس ، قال عباد بن موسى : « وأظنها الزرازير » وقال أبو ذر الخشني في شرحه : والخطاطيف والبلشون ضربان من الطير .

يحملها : حجر في مِنقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحمَّص والعَدس ، لا تُصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلُّهم أصابت . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريقَ الذي منه جاءوا ، ويسألونَ عن نُفيل بن حَبيب ليدلَّهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نُفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نِقْمته :

أينَ المَفَرّ وَالإلَهُ الطَّالِبُ والأشرمُ المَغْلوب ليس الغالبُ

قال ابن هشام : قوله : « ليس الغالب » عن غير ابن إسحاق[1] .

قال ابن إسحاق : وقال نفيل أيضاً :

ألا حُيِّيْتِ عنَّا يا رُدَيْنا نَعِمْناكم مع الإصباح عَيْنا
(أتانا قابسٌ منكم عشاءً فلم يُقْدَر لقابِسكم لدَيْنا)
رُدَيْنةُ لو رأيتِ - ولا تَرَيهْ لدى جَنْب المُحصَّب ما رأينا
إذاً لعذرْتِني وحمدتِ أمري ولم تأسَيْ على ما فاتَ بَيْنا
حَمِدتُ الله إذ أبصرتُ طيراً وخِفْتُ حجارةً تُلْقَى علينا
وكلّ القوْم يسأل عن نُفَيل كأنَّ عليَّ للحُبْشانِ دَيْنا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلِكون بكل مَهْلِك على كل مَنْهَل ، وأُصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم تسقط (أنامله) أنْملة أنْمُلة ، كلما سقطت أنْمُلة أتبعتها منه مِدّة تَمُثّ قيحاً ودماً ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدرُه عن قلبه ، فيما يزعمون .

---

(١) وكانت قصة الفيل هذه أول المحرم من سنة اثنتين وثمانين وثمانمئة من تاريخ ذي القرنين (راجع الروض الأنف) .

قال ابن إسحاق : حدثني يعقوب بن عُتْبة أنه حُدِّث :

أن أوّل ما رؤيت الحَصْبة والجُدَرِيّ بأرض العرب ذلك العامَ ، وأنه أوّل ما رُؤي بها مَرائر الشجر الحرمل والحنظل والعُشَر ذلك العام(١) .

انتهى ملخصاً عن سيرة ابن هشام ، متصرفاً في بعضه .

ولما هزم الله الأشرم بقدرته المحضة بلا قتال من أحد ، وكان ذلك في مولد سيد الكائنات عليه الصلاة والسلام ، فلما بعثه ربه وكذبه من كذبه من قريش ، قال له ربه سبحانه مخبراً ومسمعاً قريشاً الذين يعلمون ذلك جيداً .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۞ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۞ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۞ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۞ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾(٢) .

يقول جل شأنه وتبارك اسمه : أما رأيت يا محمد ما فعل ربك الذي أرسلك باؤلئك الذين جاءوا بالفيل العظيم، جاءوا رياء الناس ليهدموا بيت ربهم ، فعاد كيدهم عليهم كيداً ، وعاد تدبيرهم عليهم تدميراً ، جاءوا بسلاحهم فجاء الله بسلاحه ، جاءوا بفيل عظيم فجاء

---

(١) قال مؤلفه : أما المرائر فكانت معروفة لدى العرب في الجاهلية قبل ذلك ، بدليل أن احد اجداد العرب اسمه حنظلة ، وكان شجر العُشَر معروفاً في الجاهلية ، وله منافع يعرفونه .

(٢) سورة الفيل : ١ ـ ٥ .

الله بطيور صغيرة تحمل حجارة صغيرة مسومة عند ربك للمسرفين ، قل لهؤلاء المكذبين : كيف رأيتم ؟! ألم يكن منكم الآن حياً من رأى ذلك العجب العجاب ؟! قوة عسكرية ضخمة تتقهقر أمام جند الله الذي يرى صغاراً في العين ، وسلاحه لا يكاد يـرى ، ثم هو يفري بطون جند الطاغـوت فريـاً ، فيجعلها فـرَائسَ كالبقـايا بعـد الآكلين !

هذا قول محكم ووصف بديع ، فمِن مثل هذا فليخف الطغاة والجبابرة ، وإن الله بالمرصاد المسيطر .

المستهزئون

كان في بعض ما حصل للأمم المبادة السابقة متعظ ، لو كان الناس يتعظون ، وفيه معتبر لو يعتبرون ، وفيه للمشركين مزدجر لو كانوا يزدجرون. ولكن المشركين لم يتعظوا بما حدث لأبرهة، ولا أخذوا بجلال العمل الباهر ، فكذبوا رسول الله واستهزأوا به ، فأخذهم الله ﴿**أخذ عزيز مقتدر**﴾ وكفى الله نبيه المستهزئين .

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

جاء في أسباب نزول هؤلاء الآيات : إن رسول الله ﷺ ، ظل يدعو في خفاء كل من يتوسم فيه الخير والصلاح ، فآمنت به طائفة مختارة منهم : علي بن أبي طالب ابن عمه وخديجة زوجه وأبو بكر صديقه ، وعدد من بواكير أصحابه رضوان الله عليهم ، وظل هذا دأبه حتى نزلت ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأُعْرِضْ عنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾ . أجهر بالدعوة ولا تخف ، وجانب عناديد المشركين ، واهجرهم ودع أذاهم ، والشطر الأخير من الآية كان في بدء الدعوة ونسخ بقوله :

(١) سورة الحجر : ٩٤ـ٩٦ .

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾[1] فلما صدع البشير النذير بالدعوة تعرّض للأذى ، واستهزأ به صناديد كفار أهل مكة وذوي الحسب والرفعة منهم ، فبشره الله بشارة الضامن الكافل بقوله: ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ وأورد ابن كثير في تفسير هذه الآية : مر رسول الله ﷺ ، فغمزه بعضهم ، فجاء جبريل قال : أحسبه قال فغمزهم فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا .

وقال محمد بن إسحاق : كان عظماء المستهزئين كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير : خمسة نفر ، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم من بني أسد بن عبد العزى بن قصيّ: الأسود بن أبي زمعة كان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه فقال (اللهم أعم بصره وأثكله ولده)، ومن بني زهرة الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ومن بني مخزوم : الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ومن بني سهم ابن عمر بن هصيص بن كعب بن لؤي : العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد ، ومن خزاعة : الحارث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن ملكان . فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عن الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * - إلى قوله - فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ قال ابن إسحاق فحدثني يزيدَ بن رومان عَن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء أَن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه فمرّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستقى بطنه فمات منه ، ومر به الوليد بن المغيرة

---

(١) سورة الأنفال : ٣٩ .

فأشار إلى أثر جراح بأسفل كعب رجله وكان أصابه قبل ذلك بسنتين وهو يجرّ إزاره وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة يريش نبلاً له فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش وليس بشيء، فانتقض به فقتله، ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه فخرج على حمار له يريد الطائف فربض على شبرقة[1] فدخلت في أخمص قدمه فقتلته، ومرّ به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ آلِهاً أَخَرَ ﴾ سيئة أخرى ، فجمعوا بين الشرك بالله وبين الاستهزاء برسله ، وأهون الأمرين كفر . ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[2] وليسوا من ذكرنا هم المستهزئون وحدهم ، إنما هم كبارهم وصناديدهم ، وكل كافر مستهزىء ، لأن مجرد إنكار الإسلام وتكذيب رسول الله ، هو جحود واحتقار لمن جاء بالهدى ، ولذا قال تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۞ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

---

(١) شجيرة شوكية ، تقول العرب اليوم (شبرمة) .

(٢) سورة النساء : ٤٨ و ١١٦ .

(٣) سورة الجاثية : ٧ ـ ١٠ .

الأفّاك : المفتري على الله وعلى رسله ، يقول بما لا يعلم ، ويقلب الصدق كذباً والكذب صدقاً كثير الإثم من المساوىء والمخازي ، وكفاه بالكفر إثماً وخزياً .

يسمع القرآن ثم يتصام عنه ، ويتظاهر بعدم سماعه والاهتمام به ، فهذا توعده الله بالعذاب المؤلم الذي لو عرض عليه في الدنيا ما تحمله بضع ثوان ، ومع هذا لا يأبه به اليوم ، فإذا قيل له إن لك من العذاب ما تخلد فيه مهاناً ، لوى رأسه متكبراً غير مبال ، فسوف يعلم هذا المسكين أي منقلب ينقلب . يستهزىء بآيات الله ﴿ **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾[1] .

إن عذاب مثل هؤلاء عذاب مهين ، يجمع عليهم عذاب الجسد وهوان القدر والنفس ، فإذا جأروا بالشكوى ، قيل لهم ﴿ **اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ** ﴾[2] .

هذه جهنم التي وعدوا يصلونها ، فلا يقيهم ما كسبوا شيئاً ، ولا يفزع إليهم فازع ، ويضلّ عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله ، نسوا الله فنسيهم ، فلا ينظر إليهم يوم القيامة ولهم عذاب عظيم . ففروا إلى الله يا عباد الله ولا تفروا منه ، وإن ما توعدون لواقع ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾[3] .

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۞ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ

---

(١) سورة البقرة : ١٥ .
(٢) سورة المؤمنون : ١٠٨ .
(٣) سورة آل عمران : ١٠٦ .

سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۞ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۞ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[1].

هكذا قابل كفار قريش الدعوة ، استهزاء وتشكيكاً ، استهزاء بمحمد ﷺ : أهذا الذي يعيب عليكم عبادة الأصنام ؟! ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾[2] وكأنهم يريدون أن يأتي نبياً من عند الله حسب اختيارهم ، رجل عظيم يعرف قدر آلهتهم ، فلا يفند أعمالهم ولا يعيب عليهم ، يعبد ما يعبدون ويكون نبياً !

ثم كيف يعيب علينا الشرك وهو وأتباعه يذكرون الرحمن ، فيقولون ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ : هكذا كانوا مستعجلين ، يسارعون في الحكم كما يسارعون في الكفر ، ولكن أمر الله من ورائهم ، فلِمَ العجلة أيها الانسان ، إنك إذا كفرت بالله وآياته ولم تنب ولم تتب سيأتيك يوم لا تستطيع أن تكف عن وجهك النار ، هذا الوجه الذي لم تسجد به سجدة لله سيكون طعام جهنم يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا ناصر غير العمل الصالح ، يوم تأتي الله فرداً ، لا مال ولا عيال ، ولا خدم ولا حشم ، ولا شركات أو بنوك أو قيادة أو وزارة ، أنت اليوم فلان بن فلان ، وكفى ، لا نسب ولا حسب الاّ العمل الصالح .

---

(١) سورة الأنبياء : ٣٦ ـ ٤٠ .

(٢) سورة الزخرف : ٣١ .

وإنك أيها العبد المسكين تتنعم الآن فيما أتاك الله ، وتأمل أن تعيش وتعمل وتعمل ، ولكن المنية لا تأتيك الاّ بغتة ، أرأيت ؟ (بغتة) وأنت نائم ، أو مسافر أو مقيم ، تقود سيارتك ، أو تلعب مع شلتك ، وفجأة : رحم الله فلاناً ، عظم الله أجركم . . . نعم هذه الخاتمة المنتظرة ، وكم سبقك إليها لو كنت من المتفكرين ، أين أبوك أين جدك ، بل أين أخوتك الكبار ، أين أقرانك الذين كنت تلعب معهم ؟؟! تفقّد وأعقد في أصابعك ، قائلاً : أين فلان وفلان وفلان ؟! سيعود إليك صدى صوتك : ذهبوا ، رحلوا ، فانعِ نفسك قبل أن تنعى ، وقدّم بين يدي الله ما يقي وجهك حر نار جهنم .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۞ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾(١).

يخبر الله نبيه بأنه ليس بدعاً من الرسل ، فكم أرسل الله رسلاً فاستهزىء بهم ، فما كانت النتائج ؟ لقد حاق بالمستهزئين الساخرين من رسل الله ، نتاج عملهم ، فمنهم من أغرقه الله بالطوفان ، ومنهم من أرسل عليه حاصباً ، ومنهم من أهلكه بالصيحة . . ، ويقول المولى جل وعلا : أنتم تنكرون ذكر الرحمن ، فمن يحرسكم من غائلات الليل وجائحات النهار ؟ لو أراد الرحمن بكم سوءاً ، بل أنتم عاصون منكرون ربكم كافرون بأسمائه .

---

(١) سورة الأنبياء : ٤١ ـ ٤٢ .

وما يكاد الله ـ جل جلاله ـ يفرغ من تقريع الكفار ومن سار على شاكلتهم ، كالمنافقين والمؤلفة قلوبهم ، وجهلاء الأعراب ، حتى تجده يُعرِّج على المؤمنين يوصيهم ويحذرهم من موالاة الكافرين الصادين عن ذكر الله ، المكذبين رسله ، المحادين الله ورسوله ، فيقول عز من قائل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾(1) .

إنَ الذين أوتوا الكتاب من قبلنا (اليهود والنصارى) لا يرون ديننا ديناً ، ولا كتابنا مصدراً تشريعياً ، ويكذبون نبينا ويلصقون به أشنع الصفات ، وينعتون القرآن بقول محمد ﷺ ، وهو هزو ولعب . والكافرون المشركون الذين لا كتاب لهم ولا ملة ، هم أيضاً لا يرون هُدَى الله هُدًى ، ولا قرآنه منزلاً ، ولا رسوله مرسلاً ، اختلفوا عقيدة ومنهجاً واتفقوا ضد الإسلام والمسلمين ، ولم يتفقوا على شيء غير ذلكم .

يسخرون من الأذان ، ويضحكون من المصلين ، ويرون ذلك سخفاً ، فإذا هَدَى الله بعضهم إلى الإسلام عاد يضحك من نفسه ، بل يخجل مما كان يعمل قبل إسلامه .

والمولى عز وجل يقول لنا : لا غرابة في فعل هؤلاء الكافرين ، إنهم لا عقول لهم ، أي لا تفهم عقولهم هذا الدين ،

---

(1) سورة المائدة : ٥٧ ـ ٥٨ .

رغم ما أوتوا من عقول تدبر الممالك وتحيك المؤامرات ضد دين الله وأهله ، أي لا فهم لهم ولا إنصاف في الحق بين صديق وعـدو ، فجاء الله بالقرآن يحذرنا من موالاتهم وموادتهم ، ويجعل ذلك من الكفـر ، أو هو نقص في الإيمـان على أقل تقـدير ، فيقـول جـل وعلا :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(١).

هذا نص صريح نزل من فوق السماء السابعة ، يؤكـد عدم الانسجام بين الإيمان والكفر ، وأن الذين يوادون من يشاق الله ورسله ليسوا بمؤمنين، ولو كان هؤلاء المحادين المشاقين آباء أو أبناء أو أخوة أو أزواجاً، لا تحل موادتهم ولا تجتمع والإيمان في قلب واحد .

قـال المفسرون : المحـادة : أن يكـون الإنسـان في حد ، والإيمان في حد ، أي بينهما حد لا يصـل أحدهمـا إلى الآخر ، كالحدود التي بين الملاّك وبين الدول ونحو ذلك ، فأنت تحادني : بين أرضك وأرضي حد، لا أتعداه أنا ولا تتعداه أنت، أي إن الذين يحادون الله ورسوله لا علاقة إيمانية بينهم وبين الله ورسوله ، وأولئك هم الخاسرون .

---

(١) سورة المجادلة : ٢٢ .

والمشاقّة : من الشقاق ، وأصلها أن ينشق الشيء انشقاقاً فلم يعد متماسكاً ، فهذا شق وهذا شق . وإذا كان الذين يحادون الله ويشاقونه أباءنا صاحبناهم في الدنيا معروفاً وبررناهم دون ود ولا متابعة على كفر ، بل نذكرهم الله وآياته وجميل صنعه وبديع خلقه كلما سنحت سانحة ، أو لمعت بارقة .

يقول الله جل جلاله :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١).

عاشرهما في الدنيا كما يعاشر الأبناء البررة آباءهم ، والطف بهما ، وارأف بهما ، ولا تألو جهداً في نصحهما وتذكيرهما ، مع ثباتك على الحق المبين ، وإظهار كراهة ما يعملان أو يقولان من كفر وإلحاد . ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾(٢) تودد إلى المؤمنين وجالسهم وتعلم منهم وسر في منهجهم ، وتعاون معهم على البر والتقوى ، أنِب مع المنيبين المؤمنين الذين يقولون : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(٣) .

إقرار الكفار بالربوبية :

ويفاجىء الله كفار العرب فيقول :

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ

(١) سورة العنكبوت : ٨ .

(٢) سورة لقمان : ١٥ .

(٣) سورة البقرة : ٢٠١ .

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾(١).

هم يقرون أن الله خالق كل شيء : الأرض والسماء ، ومن عليهما وفيهما ، وأنه المتصرف المدبر الرازق ، ولكنهم لا يريدون أن يكون هو المعبود وحده ، فلهم آلهة وأرباب يقربونهم - بزعمهم - إليه زلفى ، ولا يريدون أن يقروا لبشر مثلهم أن الله أرسله إليهم من بينهم ، وهذا ديدن الأمم من قبلهم ، كل ما جاءهم رسول كذبوه ، وبالتالي هذا القرآن ، مع اعترافهم بأنهم لم يسمعوا مثله من كلام العرب فقد حاولوا التشكيك فيه ، وقالوا : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾(٢) فإذاً هم يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، والله يأبى ذلك ، فمن كذب الرسل فقد كفر بالله ، وشاق الله ورسوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾(٣) .

وكفى مسبة بمن سبه الله ، فقال : ألا تذكرون ؟ أفلا تتقون ؟ فأنى تسحرون ؟ .

---

(١) سورة المؤمنون : ٨٤ - ٨٩ .

(٢) سورة فصلت : ٢٦ .

(٣) سورة النساء : ١٥٠ - ١٥١ .

نزاع طواغيت المشركين :

نازع المشركـون رسول الله ، وأذوه بشتى الأذايـا والبلايـا ، فكذبوه وتعرضوا لأتبـاعه من المؤمنين بـالعذاب والتنكيـل ، فماذا كانت النتائج ؟ أظهر الله أمره ونصر عبده ، وأخذ صناديد المشركين أخذ عزيز مقتدر ، فما مرت سوى سنوات حتى كانوا كأمس الدابر .

قُتل كيف قدّر :

هذا الوليـد بن المغيرة من صنـاديد قـريش وفهمائهم وذوي الألبـاب فيهم ، سمع القـرآن ، فقال : ليس هـذا بشعـر وإن لـه لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليلعو وما يعلى عليه ، وما أشك أنه سحر ، فأنزل الله عز وجل :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۞ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۞ وَبَنِينَ شُهُودًا ۞ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۞ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۞ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ۞ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۞ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ نَظَرَ ۞ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۞ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۞ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۞ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۞ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۞ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۞ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۞ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾(١).

يقول الله جل وعلا : هذا العبد الجاحد الكافر أخرجتـه من

---

(١) سورة المدثر : ١١ ـ ٣٠ .

بطن أمه لحمة حمراء ، ثم ترعرع وحيداً فأنعمت عليه بالمال والبنين الذين لا يغيبون عنه (شهوداً) ومهّدت له الحياة فصارت رخية كما يشتهي ، ويطمع في الزيادة ، أنظر كيف استعمل دهاءه في وصف القرآن فوصفه بالحسن ، ثم يميل به عن قول الحق إلى السحر ، إن هذا العبد الآبق سأحرقه في سقر (النار الحاطمة التي لا تبقي لحماً ولا عظماً) (لا تبقي ولا تذر) عليها تسعة عشر ملكاً غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم .

فلما نزلت ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ قال أبـو جهل : يـا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ؟! فأنزل الله سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾(١).

أي لمثل هذا الأهـوج الفظ الذي يـظن أن عشرة من قـومه يستطيعون الإمساك بجندي من جنود الله ! ولم تزل به فظاظته هذه حتى رأى بعينه يوم بدر كيف تسقط الجماجم تحت ضربات خفية من جند الله ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۞ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾(٢) .

أين جنودك يا أبا جهل ؟ .

وجاء يوم بدر ، ودارت معركة الفصل بين الإيمان والكفر ، وجـاء محمد بـالمؤمنين ، وجاء أبـو جهل وعصـابته تغنيهم القيـان

---

(١) سورة المدثر : ٣١ .

(٢) سورة العلق : ١٧ ـ ١٨ .

ويسمعون المزاهر ، وأنزل الله جنده الذين كان أبو جهل يظن أن كل عشرة من قومه كفواً لواحد منهم ، وظلت جماجم أعداء الله تتساقط ، ومنها جمجمة أبي جهل نفسه ، والله يوحي إلى الملائكةِ :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(١) .

ونزلت الملائكة ـ حقاً لا مراء فيه ـ وقذف الله في قلوب الذين كفروا خوفاً ووجلاً ، وضرب المؤمنون وضربت الملائكة ، فتهاوت جماجم المشركين ، وكان أبو عشرة من بين الهلكى ، وكان عقاب الله شديداً مروعاً للمكابرين المشاقين الله ، المنكرين رسالته الجاحدين كتابه ، فذاقوا وبال عصيانهم ، وحصدوا ثمار كفرهم ، فهزمهم الله شر هزيمة ، فردموا في قليب (بئر) بعضهم فوق بعض كما تردم الشياه الميتة ! فما أغنى عنهم جمعهم ، ولا وقاهم بنوهم ، ولا فداهم مالهم الذي يكنزون . وليسوا هم أحق ممن تأخر عنهم العذاب ، بل كل من على شاكلتهم إلى يوم القيامة سيرسل الله عليه من يسومه الهوان حيث ما كان .

وهل هذا كاف ؟! كلا ، بل إن للكافرين في الآخرة عذاب النار ، جزاء جحود نعمة الله المنعم الكريم . وإن الذين يخادعون

---

(١) سورة الأنفال : ١٢ ـ ١٤ .

الله فيؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، يقرأون القرآن ويخالفونه إلى ما يشتهون ، يأخذون ما يوافق أهواءهم ويهملون ما لا يروق لهم ، هؤلاء سيصيبهم ما أصاب أسلافهم الذين كفروا ، إذ أن الرسالة كلٌّ لا يتجزأ فمن كفر ببعضها كفر بها كلها ، فحكمه حكمهم ، ومصيره مصيرهم ، وبعداً لهؤلاء وأولئك .

ودور المنافقين :

أُوذي رسول الله ﷺ في مكة ، فهاجر إلى المدينة المنورة بعد أن أصبح له فيها أنصار ، انتشر بينهم الإيمان حتى كان القرآن في كل حي ومجمع ، فأذن الله له بالهجرة فاستقبلته الأنصار استقبال المؤمنين لنبي رب العالمين ، وناصبه اليهود العداء ، والتف حولهم طائفة ممن يظهر الإسلام ويبطن الكفر ، فسماهم الله جل وعلا : المنافقين ، إلّا أن هؤلاء كان أذاهم أخف وقعاً من أذى المشركين لشيوع الإسلام وعزته إلّا أنهم كانوا في جهد جهيد من الكيد للإسلام والمسلمين ، يعيبونهم ويثلبونهم ، والله قامعهم ، يقول الله فيهم :

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۞ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۞ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۞ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾(١).

كان المنافقون يعلمون أن الله ينزل لكل حادثة قرآناً ، وكانوا يخشون أن يفضحهم بين المسلمين ، خاصة أن بعض المنافقين كان ابنه أو بنته أو زوجه مؤمناً ، وكان بعضهم يتعايش على علم بذلك ، ويحذر كل منهم الآخر - ما أشبه الليلة بالبارحة - وكان المنافقون يتعارفون فيتآمرون على المؤمنين ، ولا يدفعون الزكاة ، ولا ينفقون في سبيل الله ، ويلمزون المؤمنين ويستهزئون بهم ، وإذا قاموا للصلاة قاموا كسالى ، يخادعون الله ، والله خادعهم ، فما جزاؤهم ؟ إنهم مع الكفار في نار جهنم ، ملعونين مطرودين من رحمة الله ، ليس لهم على مؤمن ذمة ولا حرمة ، إنهم خسروا أنفسهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة أخسر .

وإن الذين يسيرون اليوم سيرهم فلا يصلّون أو لا يصلّون إلّا رياء الناس ، ولا يخرجون زكاة أموالهم ، ولا ينصرون الله والإسلام ، ولا يناصرون المجاهدين ضد الكافرين ، الذين لا يناصرون المسلمين في فلسطين وفي أفغانستان ، وفي كل بقعة تئن

---

(١) سورة التوبة : ٦٤ - ٦٩ .

تحت هذه الهجمة العاديّة الثموديّة، هؤلاء هم المنافقون ، يدّعون الإسلام ولا ينصرونه ، يتغنون بأمجاد العرب وما سادت العرب إلّا بالإسلام ، ولن تعود فتسود إلّا به ، هؤلاء المنسلخون من العقيدة ، المسلمون بالهوية ، هم أضر وأشر على الإسلام من المنافقين المعلومي النفاق ، لأن المعلوم النفاق كان يعرف فيحذر ، والمنسلخون اليوم قد يعلن بعضهم الجهاد في سبيل الله امتطاء لظهور الراغبين في الجهاد ، الطامحين إلى رفع راية الإسلام على كل أرض إسلامية ، المنسلخون من العقيدة ينطبق عليهم قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾(١).

ماذا تقول لهم ؟ قل لهم ما أمر الله نبيه أن يقول لأمثالهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ۞ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۞ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾(٢).

---

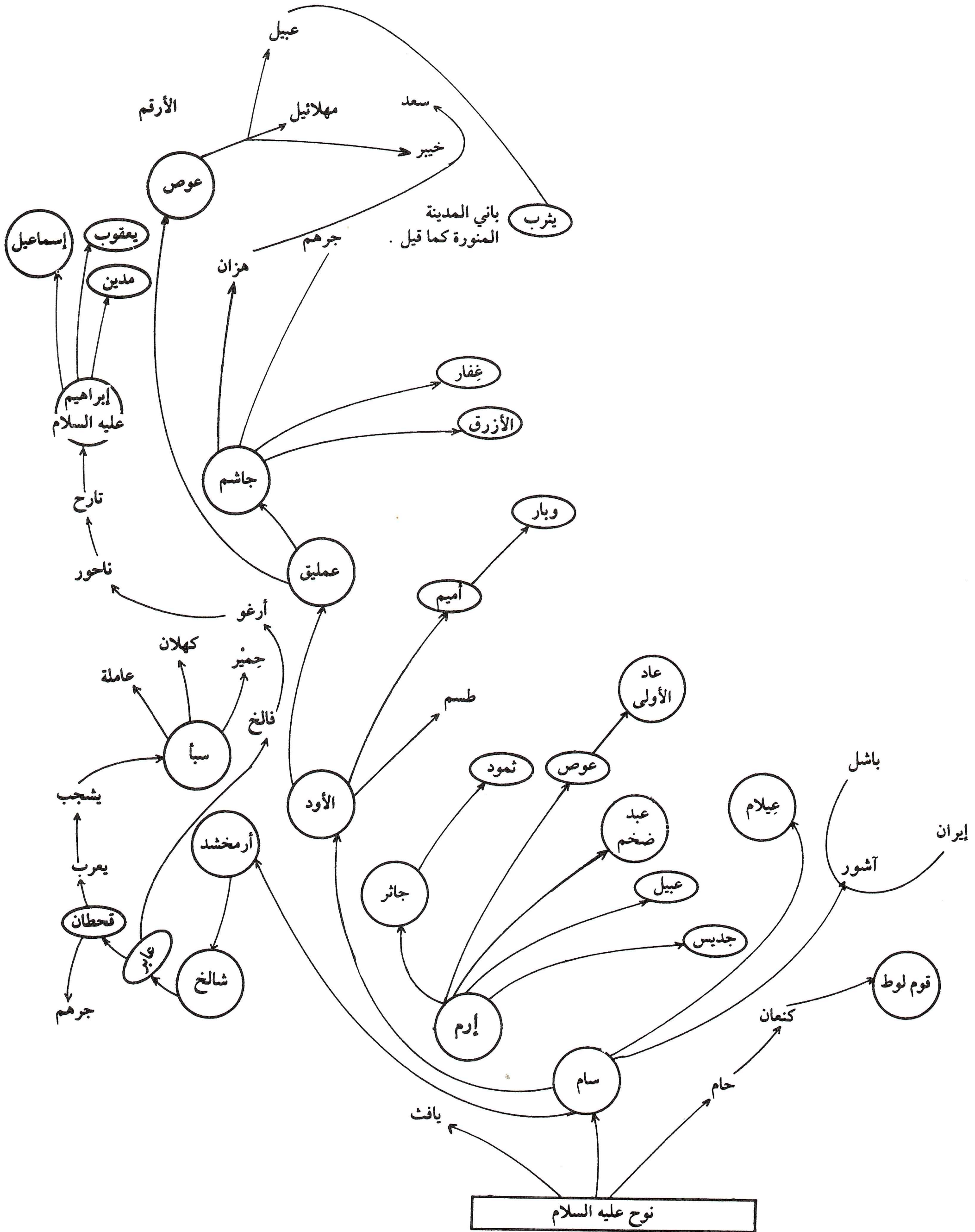
(١) سورة المنافقون : ٤ .
(٢) سورة الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٨ .

هؤلاء الآيات من آيات الله المحكمات التي لا تحتاج إلى شرح ؛ إنما هو مجرد زيادة في الإيضاح ، فانظر إلى هؤلاء المساكين الذين فسدت أعمالهم وهم يظنون أنها طيبة ، ما الذي أفسدها ؟ أفسدها منافاتها لشرع الله ، فالله لا يعبد إلا بما شرع ، وكل عمل يظنه الإنسان عمل خير وهو معارض للدين ولما جاء به الرسول وما أنزل الله من كتاب ، فهو الضلال ، فهؤلاء الضالون كفروا فأحبط الله أعمالهم ، أي مسحها فلم يترك لهم منها شيئاً ، وعاقبتهم نار جهنم ؛ بخلاف الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، الذين كانت أعمالهم مطابقة لما شرع على أيدي رسله ، فجزاؤهم أن يدخلهم (الفردوس) وأكرم به مأوى ، وأكرم بها مثوبة .

الختام : كانت لكم جنات الفردوس نزلاً ، إن شاء الله .

وتم الفراغ منه في مكة المكرمة ،
يوم الثلاثاء الثالث والعشرين
من شوال ١٤١١ هـ ،
والحمد لله رب العالمين .

شجرة القبائل والأمم المبادة بنص القرآن الكريم



جريدة المراجع

---

١ ـ القرآنيات :

أ ـ القرآن العظيم .

ب ـ تفسير ابن كثير .

جـ ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) .

د ـ تفسير الطبري .

هـ ـ أضواء البيان .

و ـ الكشاف للزمخشري .

٢ ـ كتب الحديث والفقه :

أ ـ كتب الحديث الستة .

ب ـ موطأ الإمام مالك .

٣ ـ التأريخ والسير :

أ ـ مروج الذهب للمسعودي .

ب ـ الكامل في التأريخ لابن الأثير .

جـ ـ سيرة ابن هشام .

د ـ قصص الأنبياء لابن كثير .

هـ ـ فضائل مكة المكرمة للمؤلف .

و ـ عمدة الأخبار في مدينة المختار / للعباسي .

ز ـ أخبار مكة / للأزرقي .

ح ـ العقد الثمين في تأريخ البلد الأمين / للفاسي .

٤ ـ كتب الأنساب :

أ ـ سبائك الذهب في معرفة أنساب العرب / للسويدي .

ب ـ جمهرة النسب / لابن الكلبي .

جـ ـ جمهرة أنساب العرب / لابن حزم .

د ـ الاشتقاق / لابن دريد .

هـ ـ نسب عدن وقحطان .

و ـ معجم قبائل الحجاز / للمؤلف .

ز ـ نسب حرب / للمؤلف .

بالإضافة إلى مراجع عديدة عرضية .

دليل الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

---

١ - **معجم معالم الحجاز** : كتاب جغرافي تأريخي أدبي ضخم ، يقع في عشرة أجزاء ، تباع أجزاؤه مفرّقة ومجتمعة .

٢ - **الأدب الشعبي في الحجاز** : كتاب أدبي ، يقع في ٤٥٠ صفحة طُبع للمرة الثانية .

٣ - **نسب حرب** : كتاب تأريخ ونسب ، يؤرِّخ لقبيلة حرب التي شغلت حيِّزاً من تأريخ الجزيرة خلال ١٤ قرناً ، طُبع للمرّة الثالثة .

٤ - **معجم قبائل الحجاز** : كتاب عن أنساب القبائل التي قطنت الحجاز من فجر التأريخ إلى يومنا هذا ، ويتتبّع بعض البطون التي نزحت إلى البلاد العربية الأخرىٰ ، مثل : الأردن ، العراق ، سورية ، مصر ، السودان ، وغيرها . يقع في ٦٠٩ صفحات ، طُبع للمرة الثانية .

٥ - **على طريق الهجرة** : كتاب رحلات ومشاهدات لمنطقتي مكّة والمدينة ، ومواقع الغزوات التي حضرها الرسول ﷺ ، وبه خرائط تنشر لأوّل مرة . طُبع للمرة الثانية .

٦ - **معالم مكّة التأريخيّة والأثرية** : معجم عن أماكن مكّة وما حولها . طُبع للمرّة الثانية .

٧ ـ **رحلات في بلاد العرب** : رحلات ومشاهدات في شمال الحجاز والأردن ، قبائلها وجغرافيتها ونبذ من تأريخها . طُبع للمرّة الثانية .

٨ ـ **الرحلة النجديّة** : رحلة طويلة في أرجاء نجد الواسعة ، أنساب قبائلها ، وصف كثير من المدن والقرى ، العمران ، الحالة الاجتماعية ، النهضة في الرياض ، الفكر والصحافة والأدب هناك . طُبع للمرة الثانية .

٩ ـ **طرائف وأمثال شعبية** (من الجزيرة العربية) : طُبع للمرة الثانية ونفد .

١٠ ـ **بين مكّة وحضرموت** : رحلات ومشاهدات في بلاد : عسير ، نجران ، الربع الخالي ، قبائل اليمن وحضرموت ، أنسابها وتأريخها .

١١ ـ **المعالم الجغرافية في السيرة النبوية** : معجم يحوي جميع المواضع التي وردت في كتاب السيرة النبوية ، في جزيرة العرب ، والأردن ، والعراق ، وسورية ، ومصر ، وغيرها ، مزوّد برسوم توضيحيّة .

١٢ ـ **بين مكّة واليمن** : رحلات ومشاهدات للمنطقة الممتدة من مكّة جنوباً بين البحر والسراة : قبائلها ، جغرافيتها ، تأريخها ، عادات وتقاليد شعبها ، وحالته الاجتماعية . مطبوع .

١٣ ـ **أخلاق البدو** (في أشعارهم وأخبارهم) : بحوث تبيِّن خلق البدوي ، وحياته ، مدعمة بأنماط لطيفة من أشعارهم ، وطرائف من قصصهم .

١٤ ـ **على ربى نجد** : رحلات ومشاهدات في مناطق ما بين مكة والقصيم وعالية نجد .

١٥ ـ **قلب الحجاز** : أشهر أودية الحجاز ، روافدها وقراها وسكّانها . . إلخ .

١٦ ـ **أودية مكّة المكرّمة** : وبه ثلاثة ملاحق : جغرافية مكّة : أوديتها وجبالها وسكّانها والمعالم في شعر كثيّر ، والمعالم في شعر عمر ابن أبي ربيعة .

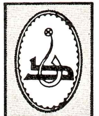
١٧ ـ **أمثال الشعر العربي** : كتاب يستقصي الأمثال الشعرية منذ نشأة الشعر العربي حتى نهاية القرن التاسع .

١٨ ـ **فضائل مكّة ، وحرمة البيت الحرام** : موضوعه من عنوانه ، بيان لفضائل أم القرى ، حرمتها ، وأجر العمل فيها وعقوبة من استهان بها ، أو ألحد فيها .

١٩ ـ **فضائل القرآن** : كتاب مستخرج من أصدق المراجع ، يتحدّث عن السُّور والآيات التي وردت الأحاديث بفضلها ، وبركتها ، وفضل المداومة على قراءتها .

٢٠ ـ **معجم الكلمات الأعجمية والغريبة في التأريخ الإسلامي** :

٢١ ـ **آيات الله الباهرات** : آيات الكون والخلق والابداع ، والحياة والموت والنشور ، وكل الدلائل الباهرة على قدرة الخالق الصانع الواحد .



يُطلب خارج المملكة مِن :

دار النفائس بيروت - ص.ب : ١٤/٥١٥٢ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقيا : دانفايسكو

عاتق بن غيث البلادي

معجم
الكلمات الأعجمية والغريبة في التاريخ الإسلامي

دار مكة
للنشر والتوزيع

عاتق بن غيث البلادي

فضائل القرآن

دار مكة
للنشر والتوزيع